المشرق
بيروت

ايار ١٩٣٠

نفوذ السيّد المسيح
في حياتنا الدينية*

بقلم الاب مرمرجي الدومنيكي
من اساتذة المعهد الكتابي والاثري الفرنسي في القدس الشريف

الدين

صلة الانسان بالله صلة ضرورية ؛ وضرورة هـذا الاتصال ناشئة عن كون هذا ابن آدم خليقةً اي صنيعة ، وغيرُ خافٍ ان كل مصنوع منوطٌ حتماً بصانعه . ولما كانت كل خليقة تعيش وتأتي اعمالها ، أيّة كانت ، حسب طبيعتها ، طبقاً للمبدأ الفلسفي القائل : تجري الصنائع مجرى الطبائع ، اراد الله سبحانه ان يقوم تعلقنا به بموجب طبيعتنا . واذ كان الانسان مركباً من نفس وجسد ؛ وكانت نفسه متصفة بقوى اهمها العقل والارادة ، رتّب ، جلَّ جلاله ، ان يتوقف الدين ، اي اتصالنا به ،

* تقدم لنا في « مشرق » السنة الماضية مقالان في نفوذ السيد المسيح : الاول في حياتنا الادبية (ص ٤٨١) والثاني في حياتنا الاجتماعية (ص ٨٠١)

بنوع خاصّ ، على فعلين وهما معرفته تعالى ، وهذا مما يرجع الى العقل ؛ ومحبته عزّ وجل ، وهو مما ينوط بالارادة ، ومن ثمّ بالقلب . واذ كان الله الحقّ الاسمى ، والخيرَ الاعظم ، وجب على الانسان ان يعرفه بعقله ، أعني بقوته المعدّة لادراك الحقّ ؛ وان يميل او يتجه اليه بارادته ، اي بقوّته التوّاقة الى الخير . وهذه المعرفة ، وهذه المحبة ، المتكونة منهما حياة الدين الفطري ، قد رفعهما الله الى درجة لم يكن للانسان مندوحة للوصول اليها بما فطر عليه من القدرة الطبيعية ، وهي درجة معرفته ومحبته بنوع فائق الطبيعة. ومن ذلك نشأ الدين العُلوي الموحى به ، اي الذي انزله الله تدريجاً اولاً في بدء الخليقة ؛ ثم على يد موسى كليمه ومن تبعه من الانبياء الصادقين ، على تعاقب الدهور ؛ الى ان اكمله على يد ابنه الوحيد ، حسبما جاء به بولس الرسول في رسالته الى العبرانيين بقوله : ان الله كلّم آباءنا قديماً بالانبياء كلاماً متفرق الاجزاء ، مختلف الانواع . وكلمنا اخيراً في هذه الايام بابنه الوحيد الذي جعله وارثاً لكل الاشياء ، وبه انشأ الدهور .

فالدين ، طبيعياً كان ام منزّلاً ، قائم اذن في معرفة الله وما يتعلق به ، وقائم ايضاً في الميل الى الله ومحبته ، في الاوّل بنوع طبيعي ، وفي الثاني بنوع فائق الطبيعة . وهذه هي حياتنا الدينية . فاذا تقرّر هذا ، لنبحث عن كيفية نفوذ السيد المسيح فينا ، اي في معرفتنا لله ، ثم في محبّتنا له ، تقدّست اسماؤه .

. . .

يعلّمنا ايماننا ان الله موجود ، وانه خالق الكائنات عموماً ، وخالقنا خصوصاً . فمن ثمّ كان من اللائق ، بل من المحتوم ، ان يحصل لنا معرفة بالله وما يعود اليه ، اي بالعالم ، وبنفسنا . وهذه المعرفة المثلّثة الموضوع قد زاد تعالى على درجتها الطبيعية درجة سامية ، فائقة الطبيعة . فبسرّ الثالوث الاقدس ، قد عرفنا حقيقة طبيعته سبحانه ، وهو امر كان ادراكنا عاجزاً غاية العجز عن تصوّر وجوده ؛ وبسرّ الخلق ، علمنا حقيقة العالم ؛ وبسرّ سقوط الانسان ، قد اطلعنا على حقيقة طبعنا . وهذا كله قد كمل بالوحي الذي اتانا مع الانجيل الّا ان هناك سرّاً حوى مفعول هذه الاسرار كلها ، ولخّص

لنا المعارف المنطوية عليها ، وهو سرّ التجسد الالهي ، الذي بواسطته خاصةً كان للسيد المسيح الاثر البليغ في معرفتنا الدينية.

فبسرّ التجسد ، او سرّ الكلمة المتأنس ، قد علمنا علماً فائق الطبيعة بطبيعة الله وحياته في ذاته . لان هذا السرّ يظهر لنا ان الكلمة الازلي هو شعاع جوهر الآب ، وضياء مجده ، الذي نزل من السماء الى الارض لكي يلقننا معرفة الله التي بها نقدر ان نحصل على الحياة ، كما قال ، لاسمه السجود موجهاً الكلام الى ابيه : « قد جئتُ يا ابتاه لتكون لهم الحياة الابدية ؛ وهذه الحياة الابدية ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك ، والذي ارسلته يسوع المسيح.» فاحدى غايات التجسد كانت ان يعرّفنا الله ويبيّن لنا سرّ حياته الداخلية ، اي مثلما هو بذاته. وهو امر كان ، قبل ان يعلنه المسيح ، سرّاً غامضاً حتى على حكماء هذا الدهر . نعم ، كان للثالوث الاقدس بعض الاثر في تقاليد الامم ، وفي العهد القديم ؛ وكان له في الطبيعة عينها بعض الرموز : نعم من شأن الفلسفة والعلم اثبات وجود الله واعماله في الخارج . اما حياته الداخلية فلم يكن في امكان انسان ، وان كان آيةً في العبقرية ، ان يطلعنا عليها . فالمسيح وحده اوحى بها الينا في انجيله . ودونك ، في ذا الشأن ، بعضاً من اقواله : « الا تؤمن ، يا فيلبس ، اني في الآب ، والآب فيَّ ؟ آمنوا اني في الآب وان الآب فيَّ . وانا اسأل الآب فيعطيكم معزياً آخر يقيم معكم الى الابد ، الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي. فهو يعلمكم كل شيء..» وقبل صعوده ، قال لرسله ذاكراً اقانيم الثالوث : « اذهبوا الى العالم كله ، وعمّدوا الامم باسم الآب والابن والروح القدس . » هذه هي شهادة الابن عن الثالوث ، اي عن نفسه وعن أبيه وعن روحه القدّوس . وبعد ان اوحى المسيح بسرّ الثالوث ، بشر الرسلُ باسم الثالوث ؛ وباسم الثالوث علّموا البشر ؛ وباسم الثالوث عمّدوا الامم ؛ وباسم الثالوث كان الشهداء يرسمون علامة الثالوث على جباههم ، قبل تزولهم مضمار الاستشهاد. فانت ترى ان سرّ الثالوث هو أساس الدين المسيحي ، وان ملخصه هو في سرّ التجسد ، اي في المسيح الاله المتأنس.

فضلاً عن اسرار الله ، قد كشف لنا المسيح حقائق الكون ؛ لانه نور ساطع على المبروآت جمعاء ؛ كما قال هو عينه : « انا نور العالم » . وبالحق انه نور العالم ، ليس في دائرة العقليات والادبيات وحدها ، بل هو نور العالم حتى في ماديّاته . اذ ان يقيننا بالله يعرّفنا باصل العالم وخالقه . وبما ان المسيح هو كلمة الله ، فقد حوى في ذاته مثال المخلوقات باسرها ؛ وكما ان كلّ شيء فطر على صورته ، فقد كُوّن ايضاً بفاعلية قدرته ، كما جاء في انجيل يوحنا : « كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان . » فمن الجهة الواحدة نراه صادراً من الآب صدوراً ازلياً . ومن الجهة الثانية نجده خالقاً للعالم في الزمان . فالكلمة ضياء الآب ومجده وصورة جوهره . والكلمة مثال الخلائق وباريها . وهذا هو السرّ الذي القى على العالم نوراً لامعاً ، لانه نور العالم . فالايمان بالوهية المسيح يحلّ عقدة اصل العالم وخلقه وتكوّنه ، ويبيّن لنا ان بين الله وبين خلائقه بوناً شاسعاً ، وان الكلمة المتجسد قطع هذا الشوط القصيّ ، فاضحى الصلة بين الله ومبروآته ؛ وباتحاده في شخصه الالهي الطبيعتين الالهية والانسانية ، اثبت تميّزهما الواحدة عن الاخرى.

ثم ان سرّ التجسد يظهر لنا ، بعد اصل العالم ، نظام الكائنات وتناسقها . لاننا نعلم ان هناك رجالاً نوابغ ، وفلاسفة جهابذة قد درسوا طبائع الكون وعمّقوا في احواله ، فوجدوا في كلّ مكان ان الخلائق العليا ، اذا اتصلت بالسفلى ، رفعتها الى طبيعتها ، وجعلتها في مقامها . من ذلك النبات يجتذب اليه المعادن فيضمها ، لا بل يمزجها بحياته النباتية . والحيوان يستميل اليه النبات فيتمثله ، فيدخله في حياته الحيوانية . والانسان المرتفع على كل ما تقدم من المخلوقات يجذب اليه هذه الكائنات المعدنية والنباتية والحيوانية فيستغرقها كلها في طبيعته البشرية ، ويرقى بها الى مقامه الروحي الذي يتصل به هو عينه بالطبقات العقلية الرفيعة . فاذا كان هذا نظام الطبيعة ، اي نظام اجتذاب الخلائق العليا للخلائق السفلى ، واستيعاب طبيعتها ، افلا يمكن ان نتصوّر ارتقاءً واتحاداً آخر ؟ اجل ان هذه الاتصالات قد جعلت الانسان كالصلة بين الخلائق الجسمانية التي هي ادنى منه ، وبين الخلائق الروحية التي هي اعلى منه.

لكن هناك اتحادًا لم يشاهد قط مثله في العالم ، وهو الاتحاد الذي اجراه الله بعجيبة ، اي اتحاد الانسان به تعالى ، وذلك في شخص المسيح الاله الحقّ ، والانسان الحقّ ، وهذا الذي كلّل ذلك التناسق العجيب.

على ان المسيح الكلمة المتجسد يعلمنا ، فضلًا عن هذا ، علم الانسان ؛ اي انه يعرفنا بوحدة اصلنا وبطبيعتنا . لان من معتقدات الدين المسيحي ان البشرية قد سقطت ؛ وان منقذها هو المسيح ابن الله . مما نتج عنه ان كل البشر الذين خلصوا بيسوع المسيح هم الذين هلكوا جميعهم بآدم . فالسقوط جرى بآدم الاول ، والقيام بآدم الثاني . وهاتان هما العقيدتان المتجاذبتان والمتحدتان ؛ وكلتاهما تثبت وحدة الجنس البشري ، اي ان جميع هؤلاء الانام قد نزلوا من صلب ابيهم الوحيد ؛ مما جعلهم باسرهم اخوة بالطبيعة ، كما هم اخوة بنعمة المسيح . وبعد وحدة الاصل ، يلقّننا سرّ التجسد معرفة الطبيعة البشرية . لان عقيدة اتحاد لاهوت ابن الله بناسوتنا اتحادًا اقنوميًا يوحي الينا ان لنا ، فضلًا عن الجسد المادي ، نفسًا روحانية ، حرّة ، خالدة ، لما هو معلوم من اصول ايماننا ان التجسد لم يتوقف على اتخاذ الكلمة من طبيعتنا الجسدَ وحده ، بل انهُ قد اضحى انسانًا كاملًا اي ذا جسدٍ ونفسٍ أتحدهما بلاهوته. مما يثبت معه ان في الانسان نفسًا حيةً روحانية ، لظهور النفس متميزة في المسيح عن جسده وقائمة بذاتها ؛ ونفسًا حرّةً ، لانه قَبِل باختياره المطلق الآلام والموت ؛ ونفسًا خالدةً ، لان نفسه باقية في المجد معه.

ومما يفيد به سر التجسد هو انه يوضح لنا تاريخ البشرية . اذ بدون المسيح كل التاريخ ، سابقه ، ومعاصره ، وتابعه ، لا معنى له . فبدونه لا يُرى في الشعوب المتقدمة مجيئه سوى الاضطراب والتنازع والتطاحن والتفاني . ولاسيما في الشعب الاسرائيلي ؛ فانه ان لم يُعتبر بآبائه ، وانبيائه ، وشرائعه ، كتمهيد لمجيء المسيح ، فلا يكون وجوده وتاريخه الّا زعبرة وشعوذة . وكذا القول في تاريخ تأسيس الدين المسيحي ونشأته . فبغير عقيدة التجسد ، اي بدون الايمان بالمسيح ابن الله ، لا يمكن شرحه . اذ لا يمكن تعليل الانقلاب الذي احدثه . لان انخذال العالم الوثني ، وانتصار المسيحية امًا هو

حادث الهي اي من تأثير المسيح الاله ، والّا فهو حادث مستحيل الوجود. وهذا ايضاً شأن التأريخ الذي عقبه الى يومنا هذا ؛ فان ثبات النصرانية ، على الرغم من الاضطهادات ، والتقلبات ، والهرطقات ، ليس الّا من مفاعيل الوهية المسيح وقوته الفائقة الطبيعة المستمرة في الكنيسة حتى منتهى الدهور.

صفوة القول ، ان المسيح الاله هو كالفنار المنتصب على ساحل بحر هذا العالم متلألئاً ، ساطعاً بنوره على سبيل الحقائق الضرورية لنا معرفتها في ما يعود الى الله والعالم وطبيعتنا . فان كل شيء به ، ومعه ، وفيه. هذا نفوذه الاول.

. . .

على ان نفوذه الثاني ، اي تأثيره في الارادة التي بها نميل الى الله ونحبه ، ليس باقلّ فعلاً من تأثيره في عقلنا . لاننا اذا انعمنا النظر في حقائق ديننا القويم ، نرى فيه عجائب مذهلة ، نسبةً الى الاعمال التي اجراها الله لخير الانسان. لكننا نشاهد ، فوق كل تلك المدهشات ، عجيبة من اغرب العجائب تلمع بينها كالشمس النيّرة ، الا وهي عجيبة المحبة. اننا اذا عمقنا في التأمل ، نجد الهاً واجب الوجود ، كائناً بذاته ، قديراً ، غنياً ، حكيماً ، لا بداية له ولا نهاية ؛ حياته وغايتها ، سعادته وكمالها ، في نفسه. الّا ان هذا الاله فيه خاصية جوهرية هي خيريّته او جودته الفيّاضة التي دفعت حكمته وقدرته الى العمل . فمن فيض هذه الجودة الالهية قد برزت قدرته الى الخارج ، فابدعت العالم بما فيه من كائنات سماوية وارضية . وفي جملة هذه المبروآت صنع الله الانسان ، مميّزاً اياه عن بقيّة الخلائق . وكان ذلك عجيبةً من عجائب المحبة الالهية . خلقه من مادّة جامدة نفخ فيها روح الحياة ، الروح العاقلة ، المريدة ، الحرّة ؛ فجاء بذلك على صورة باريه ومثاله . فوضعه الله في جنة عدن ، وافاض عليه بركاته وآلاءه ، واقامه ملكاً مسلطاً على الطبيعة . وما سبب ذلك ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . سقط الانسان في الخطيئة ، رغماً مما زيّنه به من الكمالات ، وانعم عليه من الخيرات ؛ لكن الله ، عوضاً عن ان يهمله ، قصدَ ان ينشله من وهدة الهلاك . وما داعي ذلك ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . الملائكة اشرف من الانسان واسمى ، وكانوا قد سقطوا قبله ،

فهلكوا هلاكاً ابدياً . امـا الانسان ، ففضّله الله على الملائكة ، واختصّه بعنايته ؛ فما علة ذلك ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهيـة . هذه الارواح السماوية لم تخطئ الّا خطيئة واحدة في ظرف من الظروف شقّ على طبيعتها غـاية الشقّ ، فحصلت على التعس الدائم ؛ وابنـاء البشر يأثمون ولا يزالون مكرّرين الاثم ، رافضين نعم الله ، محتقرين وصاياه ؛ ومع ذلك يحتم الباري ان ينقذهم ، ولماذا ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . كان في امكان الله ، وقد حتم بان يغفر للانسان جرمه ، ان يفعل ذلك بكلمة واحـدة تصدر من فمه القدوس ؛ لكنه قصد ان يخلّصه بتجسد كلمته الازلي لان التجسد اسمى درجة لاتحاد خليقته به ، واولى وسيلة لارضاء عدله ورحمته معاً . وهذا ايضاً عجيبة من عجائب المحبة الالهية . صار الكلمة جسداً وحلّ فينا ، اي انه ضمّ طبيعتنا الواهيـة الى طبيعته الالهية باقنومه السامي ؛ فاصبح الالـه انساناً ، والانسان الهاً ؛ وبذلك ارتفعت الافعال البشرية الى مقام الافعال الالهية ؛ مما قدر الانسان معه ان يكفّر ، في شخص المسيح ، عن خطيئته . اجل ان هناك لسرّاً عميقاً ؛ لكنه عجيبة من عجائب المحبة الالهية . كان بوسع المسيح ان يكتفي بهذا العمل العظيم الذي لم يُرَ له مثيل ؛ لكنه لم يرضَ بان تواضع هذا التواضع ، بنزوله من علوّ سمائه ، حيث يحفّ به الملائكة ركّعاً سجّداً ، مسبّحين ، لانه رأى في قلب الانسان ميـلاً شديداً الى الكبرياء ؛ فعزم على ابرائه منها . ولذا ، فهو الذي لم يحسب خلسة ان يكون مساوياً للآب ، قد اخلى نفسه وتواضع وصار في اشبه مثل الانسان ؛ فولد في مغارة حقيرة ، من أم فقيرة ؛ وعاش حياة المسكنة ، وقضى ايامه الرسولية بالتعب والعناء ، معرضاً ذاته للمذلة والهوان ؛ وهذا كله عجيبة من عجائب المحبة الالهية . ولم تكن المحبة لتقف عند هذا الحد ، لانه هكذا احب الله العالم حتى انه سلم ابنه الوحيد ؛ والى اي شيء سلّمه ؟ سلمه ليس الى الشغل والتعب ، او الذل والعار فقط ، بل اذ كانت الخطيئة تدفع الانسان الى طلب الراحة والرفاهية والتنعم والملذات ، قد قرر الآب الازلي ان يدفع ابنـه الى العذاب والآلام الفادحة ، لكي يفهم البشر ان لا كفارة عن الخطيئة الّا بتجرّع غصص الالم

وان طريق الصليب هو طريق السماء . وهذه عجيبة من عجائب المحبة الالهية. كان كافياً للمسيح الاله ان يأتي فعلًا واحداً ، كذرف دمعة ، او سكب نقطة دم او ما اشبه ، للتكفير عن المآثم البشرية ، ولفداء عوالم جمّة ؛ لكنه ، فضلًا عن الاتعاب ، فضلًا عن الاحزان والكروب ، فضلًا عن الاوجاع والآلام ، اراد ان يموت الميتة الشنيعة المريعة ، ميتة الصليب ؛ لكي يثبت لنا انه كما ان لكل شيء حداً اقصى ، اقتضى ان تبلغ محبته للبشر اقصاها ؛ هو الذي اذ كان قد احبّ خاصته احبهم الى الغاية ؛ وهو القائل: «ما من حب اعظم من ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه !» . وهذا اعجب عجائب المحبة الالهية . على ان المسيح المغرم بحب البشر لم يشأ ان يضحى مرةً واحدة على الصليب كفّارة عن مآثمنا ، بل انه ، ارواء لغليل حبه لنا ، قد رسم سر المحبة الذي امكنه به ان يكون ذبيحة متواصلة على المذابح ، تصدّ عن الخطأة سيف غضب الله الساخط عليهم ، لتفاقم شرورهم ؛ وفيه ايضاً صار طعاماً وشراباً لتقوية نفوسنا ؛ وزوّادة لنا في سفرنا الى الابدية ؛ فضلًا عن انه رضي ان يبقى سجيناً في كنائسنا ، ليقوم لدينا مقام الرفيق والخليل والمعزّي والمشجّع لنا في ضيقاتنا وتجاربنا واحزاننا . وهذا ليس عجيبة من عجائب المحبة فقط ، بل هو عجيبة العجائب ، واقصى حدّها ، واوج كمالها ، في سبيل المحبة ، من قِبَله تعالى نحونا نحن البشر .

هذا ومعلوم ان المحبة تدعو المحبة . فاذ كان للسيد المسيح النفوذ البالغ في انشاء المحبة الالهية في الحياة الدينية ، فلم يكن الّا لينشئ في قلوب البشر محبة تقابل هذه المحبة الربانية . وبالحق ان المسيح القائل : «جئت لالقي ناراً على الارض ، وما اريد الّا اضطرامها» ، قد اضرم حريقاً في العالم ، هو حريق المحبة المتأجج في النفوس ، منذ تجسده وحياته الارضية ، وعلى مدى الدهور . فنجم عن ذلك تجاه عجائب المحبة الالهية ، عجائب المحبة الانسانية . اذ مقابل محبة المسيح ، وبنفوذ نعمته ، نرى عجائب المحبة في امه القدوسة ، التي عاشت على الارض متحدة القلب بابنها الالهي ؛ فكانت كشعلة ملتهبة بنار المحبة ، وشاركته في اتعابه وآلامه ؛ ولم تفارق هذا العالم الّا لشدة حبها

لحشاشة فؤادها وفلذة كبدها. وكذا القول عن القديس يوسف ، مربّي المسيح؛ فانه بعيشه قرب اتون المحبة قد التهب هو ايضاً بنيرانها الالهية . وبنفوذ نعمة المسيح الفعالة ، قد تأثر رسله الاطهار الذين تركوا كل شيء وتبعوه . ولاسيما زعيمهم بطرس الذي اجهر بحبه للمسيح في فرص كثيرة ؛ ويوحنا الذي دعاه الانجيل: «التلميذ الحبيب» ، وقد اضحى رسول المحبة . وماذا تقول عن بولس الرسول الذي التهب بمحبة معلمه ، فكان يصرخ قائلًا : «من يفصلنا عن محبة المسيح ، اشدّة ام ضيق ، ام جوع ، ام عري ، ام خطر ، ام اضطهاد ، ام سيف ؟ اني واثق بانه لا موت ولا حياة ولا علوّ ولا عمق ولا خلق آخر يقدر ان يفصلنا عن محبة الله التي هي في المسيح يسوع ربنا.» وقد ختم جميع الرسل ايمانهم ومحبتهم باقتدائهم بمحبة معلمهم العظيمة ، اي انهم سفكوا دماءهم في سبيل دين يسوع الذي بشروا به. وعلى مثال الرسل قد سار الوف فالوف من المسيحيين ، رجالًا ونساء ، شيوخاً وعجائز ، شباناً وشابات ، صبياناً وصبيات ، فاغرموا بحب المسيح هذا الغرام البالغ بهم اقصى الحد ، اي انهم تكبدوا العار والهوان ، والتعب والمشقات ، والعذاب والآلام القاسية ، شهادةً للدين المسيحي ، فنالوا اكليل الظفر والسعادة الخالدة. وبمعزل عن هؤلاء ، هناك الوف وربوات من الابرار ، من مصافّ النساك والمتوحدين ، والرهبان والراهبات ، والكهنة والاساقفة والاحبار العظام ، الذين احبوا المسيح حبّاً جمّاً ، وحققوا في نفوسهم فضائله السامية ، محاربين اميالهم المعوجّة ، سائرين في طريق الكمال ، فاحصوا بين القديسين.

الخلاصة ، ان للمسيح الاثر البليغ ، والنفوذ التام في حياتنا الدينية . لانه عرّفنا الله معرفة كاملة بطريقة فائقة الطبيعة ، واطلعنا على حقيقة العالم ، وماهية طبيعتنا وحياتنا . وكان الوسيط بين الله ابيه وبيننا . وقد جاء فالقى في العالم نار المحبة ، فاشتعلت بها النفوس ، وتأججت لهباتها في القلوب ؛ فدفعت تلاميذه الى اتيان الاعمال العظيمة ، والمشاريع الباهرة ؛ مما حيّر الورى في كل عصر وجيل . فسبحانه هو القادر على كل شيء ، هو المنير العقول ؛ هو المضرم القلوب ؛ وله المجد والتسبيح والشكران في كل اوان.

تربية دود الحرير

تقرير رفعه لوزارة الاقتصاد الجليلة بمناسبة
عقد مؤتمر الحرير

حضرة الاب لويس بليبل اللبناني

١

ان الرهبانية البلدية اللبنانية المعروفة بكونها صاحبة الاملاك المعتبرة في جبل لبنان ، وبان معظم وارداتها من محصولات دود الحرير «الفيالج» ، قد حصل منذ نحو ثلاثين سنة نقص غير قليل في عموم موسمها المذكور بالرغم من انتخاب البزر الجيد ، فأحدث في ميزانيتها عجزاً غير قليل اهتمت به الرهبانية المشار اليها جد الاهتمام ، فأخذت تدقق في البحث لمعرفة اسباب ذلك النقص . فاوعز اليَّ الرؤساء ان اتفرَّغ لدرس هذه الحالة لمعرفتهم ميلي الى تربية دود الحرير ، قصدَ معرفة تلك الاسباب وطرق ملافاتها . فبعد درس طويل ، استغرق نحو ثلاث سنين ، توصلت الى معرفة تلك الاسباب واخترت طرقاً لتلافيها ، وبعد ان امتحنت صلاحيتها في مختلف جهات لبنان وحصلت على افادات تؤكد وتثبت نجاح ما وصفت ، نشرتُ تلك القواعد مطبوعة في كتيب ، ونشرتها ايضاً في الجرائد لتعمَّ فائدتها .

وباثناء وجودي في القطر المصري ، سنة ١٩٢٧ ، قررت الحكومة المصرية تجديد زراعة التوت واحياء تربية دود الحرير ، فقدمت ذاتي لخدمتها بعد الاستئذان من رؤسائي ، فقبلت طلبي واستدعتني وزارة الزراعة المصرية واجرت عليَّ امتحاناً ، ثم قررت ان يُسلَّم اليَّ انشاء زراعة التوت وتربية دود الحرير . على انه قد حال دون تتميم هذه الفكرة انقلاب الشؤون السياسية في الحكومة المصرية .

والآن وقد طلبت الوزارة اللبنانية من رئيس رهبانيتنا العام ان يبعث

احد افرادها ليمثلها في هذا الاجتماع الموقر، انتدبني قدسه للقيام بهذه المهمة. وها كم خلاصة مباحثي في هذا الامر:

ان النجاح في تربية دود الحرير، اي الحصول على كمية وافرة من الشرانق جيدة مقطوعتها، متينة خيوطها، ظريف لونها، يتوقف على ثلاثة شروط: ١ً: ان يكون ورق التوت صالحاً للتغذية. ٢ً: ان يكون قليل الرطوبة. ٣ً: ان يكون الدود ترَبّى تربية صحيحة فنيّة.

قلت اولاً: ورق صالح للتغذية. يفهم بذلك ان تكون متوفرة فيه مادة الصمغ والسكر وهما المادة الهامة والكلية الفاعلية لتغذية الدود. وان يكون الورق نظيفاً من الغبار وليس عليه ندى. ان توفير مادة الغذاء في الورق تحصل من حراثة الارض جيداً دفعات متعدّدة. ومن تسميدها بتسميد حيواني او نباتي او كيماوي. وقلت ثانياً: قليل الرطوبة، اي غير ورق التوت النابت في ارض كثيرة الرطوبة «نعص». وطريقة تجنبه وازالته تقوم بترميل التربة بسماكة ثلاثين سنتيمتراً، ثم تحرث ليمتزج الرمل مع التربة فيمتص الرطوبة، او بانشاء مصارف «اقنية – مصافي» لترشيح الماء لكل عشرة امتار ارض قناة بعمق خمسة وسبعين سنتيمتراً، بعرض خمسين سنتيمتراً، فيرشح الماء من هذه الاقنية فتنشف الارض، فتصلح للحراثة في حين اللزوم وتزول رطوبتها. ان وفرة الرطوبة في الارض تسبب مائية زائدة في ورق التوت فتجعله طرياً. ولما كانت دودة الحرير لا مخرج خاص للماء في جسمها كباقي الحيوانات، بل ترشحه من مسام بدنها «جلدها» مثل العرق، فوفرة الماء في الورق زيادةً عن معدّله القانوني وعجز مسام جلد الدودة عن افرازه كله، يبقي منه كمية زائدة عن المطلوب في جسمها، فيسبب لها مرض الاستسقاء «الاصفر» وهذا الداء لا علاج له، وهو غير وراثي ولا هو ميكروبي.

التربية الفنية

ان التربية الفنية الصحيحة تقوم بعملين: الاول عمل تمهيدي يتناول مقدمات التربية وهي انتخاب البزر الجيّد، اصلاح البيوت، التطهير، المدخن. وعمل

ثنوي مداره : المنحل ، التربية ، التلحيق.

٢ً انتخاب البزر الجيد

ان البعض من اهالي البلاد يولدون البزر على طريقة العلامة باستور الشهير ، وهو المعروف بين العموم بالبزر البلدي ، او الثنوي . وقد نجحوا في عملهم فافادوا واستفادوا . وانني الفت نظر الحكومة الجليلة الى هذا الأمر الهام بان تراقب عملهم ، وان تكافئ المجتهدين منهم باتقان هذا العمل بجائزة مالية تنشيطاً لهم ، وان تضرب على يد المبزر الخائن الغاش تأديباً له وتحذيراً للغير . ثم ان توجب على تجار البزر بان يجلبوه من الجنس الجيد رحمة بالفلاح ، والمالك ، والتاجر ، والدائن ، والمديون . وان تقتص من بعض تجاره الخالين من الذمة والشرف ، اولئك الذين طمعاً بربح طفيف يخدعون شاري البزر ويغرونه برخص الثمن على انه بزر جيد عال مفحوص فحصاً افرادياً ، حال كونه بزراً عاطلاً ، غير مبالين بالخسارة الفادحة. ثم تذيع نشرات على صفحات الجرائد تنصح بها الفلاح ان يشتري البزر الجيد المكفول ، ولو كان ثمنه غالياً ، وان لا ينخدع بترغيب وتشويق التاجر الطمّاع الخائن فيشتري من بزره المشكوك بجودته لرخص ثمنه توفيراً لبعض دريهمات قليلة لا توازي خسارته بمحل موسمه.

٣ً اصلاح البيوت

يكون ١ً : باعادة تطيينها وتنظيفها ، وذلك قبل زمن التربية لتنشف وتزول الرطوبة ، فانها مضرة . ٢ً : بدهن الحيطان بالكلس « طرشها » وليس بالتراب المعروف بالحوارة التي ، ولو كان لونها ابيض ، فما هي الّا تراب. لأن الكلس من اهمّ المطهرات القاتلة الميكروبات المخزونة في حيطانها . ٣ً : بعمل السقائف « السدة » بجانب الحيطان بحسب الاصطلاح المعروف. وان يكون الفراغ بين الطبقتين لا اقلّ من شبرين ، اي ثلثي الذراع ، لتجديد الهواء ولمنع تخزن الهواء الفاسد مولد العفونة التي هي من اكبر الآفات على حياة الدود . لانه قد ظهر بالامتحان ان كل طبق دود وجد على ورقه عفونة كانت خسارته تامة . ثم ان الفراغ الواسع يفسح مجالًا للعمل بحرية في اطعام الدود والكشف عليه والتشييح ... ولا اعتبار لاعتراض البعض ان هذه

الطريقة تجعل بيته غير كافٍ لتربية كل موسمه، وانه ليس في امكانه ان يعد مكاناً آخر لتربية الباقي منه . فانني اردّ على اعتراضه باحالتــه الى قول المثل الدارج « ياما احسنه ، لا ياما اكثره ! » اذ انه يستعيض باقبال موسمه وبربح الورق الـذي يذهب سدًى في تربية قزّ غير مقبلة. ٤ً : ان يكون لبيوت القزّ ولو شباكاً واحداً من الزجاج لفوائده الجمة واهمها : دخول اشعة الشمس المنيرة للاستنارة ، ودخول اشعتها السوداء لقتل الميكروبات وازالة العفن ، لان الاشعة السوداء هي كلية الفاعلية في التطهير . قال الاطباء وهم صادقون فيما قالوا : « حيث تدخل اشعة الشمس لا يدخل طبيب ، اذ ليس مرض .»

٣ً التطهير

ان الآفات القتالة التي تفتك بهذا الحيوان الذهبي الثمين ، كما قد اثبت الامتحان ، هي نتيجة ميكروبات مخزونة في بيوت القزّ وآلاتها من سنة الى سنة ، وليس كما يظنّ البعض ان كلها من عدم جودة البزر.

ان امراض دود الحرير هي على نوعين: ارثي واكتسابي، والآخر اكتسابي فقط. ان مرضي البِبرين « التحرق » والفلاشيري « الذبلان » يكونان ارثاً واكتساباً ، واما ميكروب المسكردين « الحرتوق » فلا يكون ارثاً بل اكتساباً فقط ، اي عدوى ، لان القز التي فتك فيها هـذا الداء الوبيل لا يدعها تتحول الى فراشة لتصنع بزراً ، فتكون العدوى اذاً اكتسابية اما من الهواء ، اي ان الهواء يحمل على اجنحته ميكروب هذا المرض من بيوت موبوءة الى بيت سليم يجاوره، واما من خزن جزة موبوءة ببيت سليم ، او بمشترى او استقراض آلة قز تربى عليها قزّ مصابة به. واما من زبل بقر عمل منه طباق جديدة او مسح بها سطح طباق عتيقة مأخوذ من بقر أكلت جزة كان دودها مصاباً بهذا المرض.

واما مرضا البِبرين والفلاشيري فيكونان ارثـاً وعدوى ، وقد يكون تأثير الارث ليس بنقل الميكروب بـل بنقل الضعف في بنية الدود ، او استعداد قابلية لذاك المرض. والعدوى تكون اما من ميكروبات مخزونة في البيوت ، او في الآلة ، او من لمس دود مريض ثم لمس دود سليم ، او من ثيـاب المربـين او الزائرين، او من الهواء. كما في مرض المسكردين « الحرتوق » .

والعدوى من الهواء محصورة في داء البِرين فقط . فالطريقة اذاً للتخلص من هذه الآفات تكون بقتل الميكروبات بواسطة التطهير .

كيف تطهر بيتك ؟

قد ثبت لنا بالامتحان ان اقرب مادة للتطهير فعالة ، قليلة الكلفة ، سهلة العمل ، وسهلة الوجود هي راسب الكبريت المعروف بالكبريت العمودي بكمية وافرة وافية . فالبيت المؤلف من عمودين (ثمانية امتار طول بخمسة عرض بثلاثة امتار علو . . .) يكون ١٢٠ متراً مكعباً ، يلزم لتطهيره ست اقات اي ٧٢٠٠ غرام ، لكل متر مكعب ٦٠ غراماً ، فهذه الكمية كافية لتطهيره . واما اذا كان المرض من نوع المسكردين فيلزم ضعف القيمة ، او على الاقل تسع اقات كبريت تحرق كلها دفعة واحدة ، ويكرر العمل بهذا المقدار من الكبريت سنة فسنة الى ان يتأكد ملاشاته . والبيت القائم على عمود واحد (ستة امتار بخمسة عرض بثلاثة امتار علو) يكفي لتطهيره من اربع اقات الى ست اقات كبريت ، اذا كان فيه مرض المسكردين . ومن قلل كمية الكبريت عما ورد اعلاه لا يحصل على نتيجة مرضية .

مقدمات التطهير : اولاً سد الابواب والشبابيك والطيقان والشقوق وكل المنافذ سداً محكماً ، بعد ان يكون قد تم وضع السقايف ، وفوقها الطباق والغزار وكلما يستعمل في التربية بعد غسله بماء جار نظيف وليس بماء ساكن راكد محقون وسخ . ثم يستحضر اثنا عشر قحفاً « شقفة » مجوفة او ما يقوم مقامها ، لكل نصف اقة كبريت شقفة ؛ ثم توزع في عموم البيت توزيعاً نسبياً ، وخاصة في الزوايا ، لان فيها الخفايا . والقصد من تجويف الشقف وكثرتها مفهوم . ثم يوصد الباب ويحكم سد شقوقه ، وبعد مرور ٢٤ ساعة من اشعال الكبريت تفتح الابواب والشبابيك وتبقى هكذا مفتوحة مطلقة للهواء ٢٤ ساعة . وان الفائدة من هذا التطهير تشمل الدودة والانسان .

٤ المدخن

انه لما كان المدخن اي محل التوليد الصناعي « النقف » للدود من اهم

مقدمات التربية الفنية ، وما سيكون له من شديد التأثير على حياة الدود في مستقبل الحين ، فاني آخذ بالاسهاب عنه فاقول : ان القواعد الاساسية الفنية لتدخين البزر هي : ١ً تطهير البيت بالكبريت ووضع مقدمات المدخنة : سقايف ، وجاق ، ميزان حرارة ، فاصل من الخام الابيض .. الخ . ٢ً وضع فاصل من القماش الابيض بين البزر والنار « الوجاق » ، وعلو هذا الفاصل نحو مترين او مقدار قامة انسان معتدلة . ٣ً وضع البزر داخل هذا الفاصل بعيداً عنه نحو مترين او اربعة اذرع . ٤ً وضع وجاق حديد تكون قساطله مكوّعة لنشر الحرارة وحفظها بعيداً عن الفاصل مقدار متر ونصف او ثلاثة اذرع . ٥ً وضع ميزان حرارة سنتيكراد معلقاً على القماش الفاصل بين البزر والوجاق خارجاً . وميزان آخر يعلق في السقايف داخلاً ، قصد التدقيق بمعرفة الحرارة ، وعند وجود الفرق بينهما ، تعتبر اشارة الميزان الداخلي . ٦ً التهوية لتجديد الهواء ، بفتح باب وشباك متعاكسين ، اذا وجد ، والّا فمتقابلين ، فاذا كان الطقس معتدلاً ، اربع مرات ، لكل ست ساعات مرة ، ليلاً ونهاراً الى مدة لا تكون اكثر من ثلث ساعة ولا اقل من ربع ساعة . واذا كان الطقس رديئاً ، فنصف المدة . ٧ً يلزم تدفئة البيت « المدخن » ، قبل ادخال البزر فيه برفع الحرارة الى درجة ١٦ . وهي الدرجة الاولى من سلم الصعود بدرجات الحرارة لتوليد البزر « نقف » . وتصعد الحرارة في اليوم الثاني الى ١٧ . وفي اليوم الثالث الى ١٨ . وهكذا دواليك الى درجة ٢٢ ، في اليوم السادس . ففي هذا اليوم على الغالب يبتدي نقف « فقس » البزر . ويجب الوقوف عند هذه الدرجة الى ان يتم نقف كل البزر الموجود في المدخن ، لان رفع الحرارة الى ما فوق هذه الدرجة مضر لا طاقة للدود الناقف على احتماله مدة ربما تطول الى ٣٦ ساعة ، بدون اكل . وان ما نراه من الدود المائت مصرصراً في القطرة الاولى او الثانية او الثالثة هو نتيجة ارتفاع الحرارة عن حدودها المشروحة اعلاه . ٨ً يحرك البزر اربع مرات في الليل والنهار لكل ست ساعات مرة ، ويتم ذلك بتقليب الخرايط الى الجهات الاربع وتعليقها في السقايف عكس التعليق الاول .

(للمقال صلة)

دستور القضاء

بقلم المحامي الكنسي الخوري لويس الخازن

عنوان كتاب حديث وضعه حضرة الاب العالم بولس عبود ، يقع في ٣٣٦ صفحة بقطع ثمانية ، ثمنه ليرة سورية ، يطلب من مطرانيــة الروم الكاثوليك في بيروت

غير خاف على احد ان للقضاء الكنسي ، خصوصاً في نواحينا ، صفة ليس فقط كنائسية دينية محضة ، بل مدنية ايضاً . لان دستور البلاد وانظمتها يقرّان للمحاكم الكنائسية بهذا الحق المشروع ، ويوجبان على المحاكم المدنيــة النزول عند احكامها ، وعلى الدوائر الاجرائية تنفيذ الاحكام الصادرة من قبلها .

ومن المعلوم ايضاً ان اللغة العربية هي لغة البلاد ، واكثر الاحكام تصدر بها ، ولكن بأسف نقول انــه حتى الان نرى معظم القوانين والدساتير التي يتحتم على المحاكم الكنائسية العمل بموجبها والركون اليها لم ينقل الى لغة الناطقين بالضاد . ولهذا ترى بعض القضاة يخبطون خبط عشواء ، ولا يلمّون الّا ببعض القشور من قوانين القضــاء ؛ بيد ان الغربيين لم يتركوا في تآليفهم في لغاتهم زيادة لمستزيد في هذا الصدد ؛ ولهــذا قد اصبح القضاء الكنسي عندهم موضوع احترام لكل من يطالع احكامهم حتى من اخصام الكنيسة انفسهم ، وعكس ذلك نرى في احكام دواويننا ، فقلّ ان تقرأ حكماً صادراً من قبل احدها الّا وترى دلائل الجهل بادية فيه .

فلما احس بهذا الفراغ حضرة الاب العالم بولس عبود عمــد الى ترجمة

الكتاب الرابع من مجلة الحق القانوني اللاتيني الى اللغة العربية ، وعلق عليه عدة حواشي مفيدة توضح للقارئ ما غمض من معانيه ، اخذها عن ائمة القانونيين فجاء الكتاب وافياً في بابه ، واضحاً كافياً في اسلوبه ، وهو يحتوي على ٦٤٢ مادة ، ويقسم الى ثلاثة اجزاء : الاول في الاحكام واصولها في عامة الدعاوي ، والثاني في دعاوي تطويب واثبات قداسة عبيد الله خاصة ، والثالث في اصول بعض احكام خصوصية لازال التأديبات الكنائسية . وكل جزء يقسم الى عدة فصول وابواب لا حاجة الى تعدادها . وقد عني حضرة الاب عبود بترجمة الجزئين الاول والثالث واهمل الثاني ، لان ما جاء فيه من خصائص دواوين رومية فقط .

هذا هو كتاب حضرته الذي حقّ له الشكر عليه من كل من يقرأه ، اولاً لحسن اختياره هذا السفر ، ثانياً لان الترجمة جاءت صحيحة واضحة خالية من التعقيد والابهام .

ولكن ، كما ترى ، فان حضرته قد اهمل النظر ، ولو عن سبيل الايجاز ، في قوانين الكنائس الشرقية عامة ، لان ما ترجمه يعني اللاتين فقط الّا ما كان منه بطبيعة حاله ، او لورود النصّ ، متعلقاً بالشرقيين . بيد ان لكل من هذه الكنائس قوانين وانظمة مرعية مأخوذة من قوانين الكنيسة القديمة لا يتوجب عليها ، بل لا يحق لها ، استبدالها بسواها مهما كانت لاسيما ما كان منها مقيداً في المجامع المعروفة الحديثة كالمجمع اللبناني عند الموارنة ، ومجمع الشرفة عند السريان ، ومجمع بزمار عند الارمن .

علاوة عن ذلك ، يوجد ايضاً للكنائس الشرقية ، لاسيما في الدعاوى الزواجية والتأديبات الكنائسية ، قوانين وتعاليم وضعها الاحبار الرومانيون يجب السير بموجبها . من ذلك تعليم بنديكتوس الرابع عشر الصادر في ٢ ت٢ سنة ١٧٤١ ، وتعليم جمعية المجمع التريدنتيني الصادر في ٢٢ آب سنة ١٨٤٠ ، وتعليم مجمع البروباغندة الصادر سنة ١٨٨٣ ، وتعليم مجمع السانت اوفيس الصادر في ٢٠ حزيران سنة ١٨٨٣ ، وتعليم المجمع نفسه الصادر في ٣٠ حزيران سنة ١٨٩٢ ، وكذلك تعليم المجمع نفسه الصادر في ٥ حزيران سنة ١٨٨٩ ،

وتعليم هـذا المجمع ايضاً الصادر في ٢٥ حزيران سنة ١٨٨٥ ، وتعليم مجمع البروباغنده بخصوص التأديبات الصادر في ١١ حزيران سنة ١٨٨٠ ، وغير ذلك كثير من التعاليم مما تجب معرفته والاعتماد عليه في الدعاوى الكنائسية في ربوعنا .

اما قول حضرته في المقدمة ، تحت عدد ٣ ص٥ ، بانه يجب على الكنائس الشرقية ان تلجأ في قضائها عند الحاجة الى مجلة الحق القانوني اللاتيني الحديث بدلًا من القديم ، فهذا قول فيه نظر ولا نعلم من ايّ وجه يوجب حضرته هذا الالتجاء ، فلو قال يُستحسن ، لربما سلمنا معه .

اخيرًا كنا نود من حضرته ان يعتمد في تعريبه على الكلمات والتعابير الشرعية المألوفة ، لان الالفاظ التي اعتاد ارباب القانون استعمالها اصبحت كالفاظ وضعية لا يجوز استبدالها ، لانه قد يتسرب الى ذهن القارئ اشكال في ادراك المعنى المقصود فمن ذلك قوله : « عناصر المحاكمة » بدلًا من « اركان المحاكمة » — « صورة » بدلًا من «شكل» — « الاستعلام باللسان » بدلًا من «الاستعلام بالمشافهة» او الشفهي — «احداث» بدلًا من «امور» — «لها القوة القانونية» بدلًا من «مرعية الاجراء» — «محامي الوثاق» بدلًا من «محامي السرّ» - «دفع الحكم الى القاضي الاعلى» بدلًا من «رفع الحكم» - «نفل » بدلًا من « زائد » ، الى آخر ما هنالك مما لو رمنا تعداده لطال بنا المجال كثيرًا . ولكن كل هذا لا يغبر نضارة التأليف بشيء ، وحضرة صديقنا الاب المترجم من العلماء الاعلام الذين يشار اليهم بالبنان .

ثم لا يسعنا ختام هذه العجالة من غير ان نوجه كلمة شكر وامتنان لسيادة الحبر المفضال العلامة المطران باسيليوس قطان ، رئيس اساقفة بيروت على الروم الكاثوليك ، لانه طبع هذا الكتاب على نفقته الخاصة . فحبذا لو حذا حذو سيادته غيره من السادات ، وساعدوا اصحاب العلم والتأليف على نشر ما لديهم من ثمرات جهودهم خدمة للعلم وللانسانية .

التنوير والفنّ

بقلم انطوان باز
المهندس من المكتب الافرنسي في بيروت ،
ومن مدرسة الكهرباء العليا في باريس

لقد افتتحنا مقالاتنا في المشرق الاغر ، لسنتين خلت ، بمقال عنوانه «التنوير الكهربائي» بيّنا فيه ماهية اللمبة الكهربائية ، وما احدثته من التغيير في صناعة التنوير ، فاصبح ذلك فناً من فنون الهندسة له قواعده وطرقه. وقد ضربنا صفحاً ، وقتئذٍ ، عن نتيجة ذلك الانقلاب من الوجهة الفنية او الجمال الفني (*coté artistique*) سواء كان في المنازل او المحلات التجارية او الصناعية. واننا نعود اليوم الى الكلام ، فنقول:

اول ما ظهرت اللمبة الكهربائية قابلها العالم اجمع بالاعجاب ، وتهافت الكل على اقتنائها ، غير انه ما عتم ان زالت عنها صبغة الجديد فشقّ على ساكني القصور والمنازل الفخمة استبدال تلك الثريات الحاملات من البلور لآلئ ، بذلك البلبوس البسيط . فاستبقوها ليس فقط كبقايا ثمينة لعصر فائت بل كمصابيح جمعت بين المنفعة والفن . كيف لا وانوار شموعها ، عند المساء ، بانعكاسها وانكسارها ضمن سلاسل البلور ، لابلغ من انوار الكهربائية الساطعة !

وبقيت للشموع رموزها ومقامها الى اليوم . فكم تنير من قصور ، في الليالي الساهرة رغم تقدم الكهرباء !

التنوير وصناعة الزجاج

وادرك الزجاجون الاوربيون ، ومنهم من طار صيتهم كالمعلم الفنان لاليك (Lalique) والمعلمان سابينو (Sabino) وپرزل (Perzei) ، حراجة الموقف فعمدوا الى تطبيق فنّ الزجاج ، خصوصاً البلور بشكله الحالي المعروف «بالزجاج

المرصوص » (*verre pressé*) ، على التنوير الكهربائي. فجاؤوا تارةً بثريات وتارةً بسقوفٍ منوَّرة ، دقيقة الصنع ، جميلة المنظر ، اذا لعبت ببلورها الانوار اضاءت كحلية من الالماس في شمس الضحى. وقد مثلنا ، في الرسم ١ ، احدى تلك الثريات صنع الفنان سابينو ، طولها تسعون سنتيمترًا وعرضها ثمانون ، تسع واحد وعشرين من الاضوية مختبئة ضمنها ، مخفية عن العيون . فاذا اضيئت لعبت انوارها بالزجاج من انعكاس الى انكسار ، فظهرت كالكوكب الوضَّاح.

اما الرسم ٢ فيمثل فانوساً عُمل بشكل حلق من الالماس مستطيل الشكل يعلق في احدى زوايا البهو او في بعض المماشي من بيوت الاغنياء . صفائحه من الزجاج المرصوص جمعت بعضها الى بعض بواسطة اقلام معدنية بيضاء ، وصانعه الزجَّاج برزل.

وفي الرسم ٣ ثريا ، لست عشرة لمبة ، تجعل في السقف ، وكلها من الزجاج المغشَّى. عملت بشكل مكعبات منقوشة غاية في الذوق.

ولو تيسر لدينا صور فوتوغرافية اخرى لنشرنا غير ذلك من الاشغال الساحرة في صناعة الزجاج استخداماً للنور.

النور ونشر الدعوة

لم تنحصر صناعة الزجاج في الثريا الكهربائية من جهة التنوير ، بل تعدتها الى اشياء كثيرة كالاعمدة والينابيع المنوَّرة. ومن الاعمال المدهشة السقوف المنوَّرة ، وهي سقوف من الزجاج المغشَّى اضيئت وراءها الوف من الاضوية ، فنثرت من خلال زجاجها اشعتها البيضاء . ولم تخفَ اهمية التنوير على اصحاب الاشغال وخصوصاً التجار ، فعمدوا اليه في بث دعوتهم لايقاف الزبون واستلفات انظاره. وقد حققت محلات «الغالري لافاييت» في باريس رواقاً امام ابنيتها طوله مئتا متر وعرضه عشرة ، سقفه مجموع مكعباتٍ من الزجاج الابيض المغشى . وينير ذلك الرواق ، من وراء الزجاج ، الوف من الأضوية ، على اختلاف الوانها . والمدهش هو ان تلك الاضوية لا تضيء الَّا حسب نظام موضوع فلا ينير منها مثلًا الا الابيض ، ثم الاحمر ، ثم الازرق ، ثم تتقلب الالوان والانوار فيصير

برتقالياً ما كان احمر ، وازرق ما كان اخضر ، وهلمّ جرًا ؛ الى ان يظهر السقف متموّجاً بجميع الالوان . ولا ادري هل يُصدّق القارئ ان القوة التي تستخدم لانارة سقف ذلك الرواق تبلغ السبعمائة حصان ، اي ما يكفي لانارة مدينة بكاملها .

وقد شاع اليوم ، لغلاء السقوف المنورة ، التنوير المخفي ، وهو يحقق بان تختفي الاضوية ضمن فريز من البنـاء ، يحيط بالسقف في اعلى الحائط ، ترسل الاضوية اشعتها على السقف فتنعكس على صحن الغرفة او الدار . وفي الرسم ٤ صورة لمقهى شركة القهوة البرازيليـة في باريس انير بالطريقة المخفية . ففي المقهى صحنٌ من المعدن الابيض معلق في الوسط ، وضمنه ثماني لمبات كهربائية قوة كل واحدة منها ثلثمائة شمعة ، وقد حكمت تلك الاضوية لكي ترسل اشعتها بشكل شهاب يضرب في السقف فينيره ثم تنعكس انواره فتنير ما في اسفل .

ومن اشهر ما عُمد اليـه في التنوير ، لبثّ الدعوة ، الجريدة المصورة وهي احرف من نور تنير امام اعين المارين مركّبة الكلمات والجمل حسب المطلوب .

ولا بد لنا ، بهذه المناسبة ، من ذكر اعلان محلات سيتروين للاوتوموبيلات فوق برج ايفـل ، ويرى فيه المارّ اسم سيتروين مصنوعاً باحرف من نور من اعلى البرج الى اسفله ، وحواليه نجوم لمّاعة من الاضوية تتموّج بالوان شتى . ويروى ان اكلافَ هذا الاعلان بلغت المليوني فرنك ، خلا ما يصرف كل يوم من الكهرباء في سبيل انارته . . .

التنوير والحديد المطروق

ومن الصناعة التي عزّزها فن التنوير صناعة الحديد المطروق . فهذا يستخدم اليوم ليس في البناء فقط ، بل ايضاً في كل ما يتعلق بالتنوير كالقناديل والثريات الكهربائية وغيرها . وقد جاء ثمن تلك الآنية غالياً لغلاء قيمة الحديد المطروق . واننا نأسف لعدم تمكننا من نشر بعض ما يُصنع من الاشغال في هذا الفن .

هذه لمحة يستنتج منها ما بين صناعة التنوير والفن الحديث من الاتفاق ، فالمنفعة اذًا لا تنفي الفن ، ولو كان العكس احياناً صحيحاً .

نوابغ المدرسة المارونية الاولى: ٤

ابراهيم الحاقلي او الحاقلاني (١٥٩٤؟ـ ١٦٦٤)

بقلم الخوري بطرس غالب

٤

المؤلف والاستاذ (تابع)

معلوم ان المجمع النيقاوي عقد في صيف سنة ٣٢٥ بناء على دعوة وجهها قسطنطين الكبير الى اساقفة سلطنته وهذا المجمع هو المسكوني الاول . كان القصد من التامه اعادة السكينة الى الكنيسة وبواسطتها الى المملكة لان آريوس الناكر الوهية السيد المسيح كان قد شوّش الافكار بما القاه ونشره من التعاليم الضالّة والمضلة. فاجتمع في نيقية ٣١٨ اسقفاً اكثرهم من اساقفة الشرق. واجتمع حول الاساقفة عدد عديد من الكبراء والشمامسة والمؤمنين حتى بلغ عدد الجميع الفي نسمة ونيف . وترأس المجمع اوسيوس اسقف قرطبة مستناباً عن البابا سلفسترس يؤازره كاهنان من كنيسة رومية وحضر المجمع قسطنطين الكبير بالذات . فبعد ان قرّر المجمع العقيدة بالوهية المسيح ووضع قانون الايمان النيقاوي الذي لا تزال الكنيسة ترتله في اعيادها وطقوسها ، حدّد ايضاً ان يحتفل بعيد الفصح في الاحد التابع لبدر الربيع ، واذا وافق تمام البدر يوم احد جُعل العيد في الاحد الذي يليه.

ثم انصرف الآباء الى وضع قوانين تتعلق بتنظيم الكنيسة وتهذيب الاكليروس وتعيين سلطة الاساقفة . فعلى هذه القوانين دارت ابحاث الحاقلاني ليثبت انها اكثر من عشرين قانوناً بخلاف ما تتمسك به الكنيستان اللاتينية واليونانية . اما الكنائس الشرقية غير اليونانية فانها تقبل قوانين اخرى عديدة غير المذكورة ، وعددها جميعها ٨٤ كما قلنا. وهذه القوانين ظلت مجهولة في الكنيسة

اللاتينية حتى الجيل السادس عشر الذي فيه اشار اليها الاب رومانو اليسوعي ، لانه كان قد وجد في خزانة بطريرك الاقباط نسخة من هذه القوانين لكنه لم يقدر ان يحصل عليها ، فاشتراها العلّامة السمعاني في ما بعد واهداها الى المكتبة الفاتيكانية . وقد نقلها الى اللاتينية اولاً توريانوس سنة ١٥٧٨ . ثم جاء الحاقلاني بعده فبحث الامر بحثاً تاريخياً مدققاً فأدّى للكنيسة خدمة جلى اذ اثبت صحة نسبة هذه القوانين الى المجمع النيقاوي وأيّد بها رئاسة الحبر الاعظم .

اما كون مجمع نيقية سنّ اكثر من عشرين قانوناً فذلك مما لا ريب فيه . لان الكنيسة التي كانت قد نالت حريتها رأت ان من الضروري ان ترتّب احوالها وتسنّ ما يلزم من الانظمة لتنسيق ادارتها وتعيين واجبات كلٍّ من ابنائها حسب ما يعهد اليه من الوظائف فتحدّد مسئوليته وحقوقه . وكذلك فان الملك قسطنطين كان يرغب في ان يوطد أسّ النصرانية في مملكته . فلم يرَ انسب من اجماع آباء المجمع على فرض القوانين وتسليم تنفيذها للاساقفة ائلّا يُضطر هو الى استعمال القوة في حمل الشعب على الخضوع لها .

فاذا تحققتَ ذلك بدت لك ضرورة سن قوانين عديدة تتناول هذه المواضيع المتفرّقة .

اما الاثباتات التاريخية فاخذها الحاقلاني من كتابات الاحبار الاعظمين منها فقرات ذكرت فيها قوانين لا يُرى لها نصّ في العشرين قانوناً التي تحفظها الكنيسة اللاتينية ، ومن هؤلاء الاحبار لاون الكبير وسوزيموس ويوليوس المعاصر لمجمع نيقية . ومن شهادات المجامع البيعية كالمجمع الافسي والانطاكي والأرلي ومن اقوال الآباء كباسيليوس الكبير وايرونيموس واغوسطينوس . واهم شهادة هي شهادة اثناسيوس بطريرك الاسكندرية القديس فانه في رسالته الى البابا مرقس ذكر ان مجمع نيقية سنّ ٨٠ قانوناً .

اختصرنا ما قاله الحاقلاني للافادة حتى يعلم الجميع ما لهذا المؤلّف من الاهمية التاريخية واللاهوتية اذ ان بعض القوانين المحفوظة عند المراطقة حتى اليوم ، وهي المعروفة بالقوانين العربية ، تثبت بنوع جلي رئاسة الحبر الاعظم في الكنيسة نذكر منها القوانين ٣٧ و ٤٤ و ٧١ التي يقال فيها « ان لصاحب رومية

سلطاناً على سائر البطاركة مثل بطرس في سلطانه على روساء النصرانية اجمع ، لانه خليفة المسيح على بيعته كلها . ومن خالف هذا القانون يكون محروماً من المجمع . وان المقام الاول يخص الحبر الروماني على ما امر به الرسل ، وانه يحق للاسقف الذي يحطه مجمع الاساقفة ان يرفع دعواه الى محكمة الحبر الروماني ، وعلى الجميع ان يرتاحوا لحكم اسقف رومية .»

فكان لنشر ذاك البحث تأثيرٌ شديد في الكنيسة فقرّظه الذين طالعوه ، ونثروا على واضعه ابرهيم الحاقلاني درر ثنائهم .

ومع انهماك علّامتنا بالتأليف وجمع الموادّ اللازمة لكتابه الاخير الشهير ، اي الانتصار لافتيشيوس ، كان يهتم بما ينفع طائفته ساعياً في طبع الكتب الطقسية . فانه في السنة ١٦٥٠ راقب طبع الفنقيط الشتوي ، وساعده في ذلك المطران اسحق الشدراوي الذي كان فحص ترجمته الى اللاتينية ، بالاشتراك مع الشماس جرجس ابن العريان ، والخوري يعقوب الحصرونيين ، ومراشيوس واجازوا طبعه. وهذه الترجمة باشرها مرهج ابن نمرون الباني ، ابن اخت الحاقلاني ، فكمل الطبع على يد يوسف بن داود البلوقيتي ، في سنة ١٦٥٦ .

وحين كان اسطفان الدويهي تلميذاً في المدرسة المارونية ، كان الحاقلاني يُعنى به ويهتم بأموره ، ولمّا قرب ميعاد رجوعه الى وطنه سنة ١٦٥٥ ، سعى الحاقلاني في تعيينه من قبل المجمع المقدس مرسلًا رسوليًا . فتوفق بتخصيص معاش له قبل ان يغادر رومية ، وما سيم الدويهي كاهناً في ٢٥ آذار سنة ١٦٥٦ حتى أُرسل للكرازة والتبشير وقد اشتهر خصوصاً في حلب حيث قضى نحو خمس سنوات يعظ المؤمنين بمثله وتعليمه .

وفي تلك الآونة نشر الحاقلاني دفاعه عن ترجمة الكتاب المقدس المطبوعة في باريس ، ردًا على انتقاد مناوئيه وكان ترك باريس نهائيًا في سنة ١٦٥٣ ، بعد ان نشر تاريخًا للشرق مأخوذًا عن مصدر عربي قبطي ، من جملة ما ورد فيه تاريخ خلفاء مصر وبطاركة الاسكندرية الاقباط حتى الجيل الثالث عشر . واضاف اليه ملحقاً في تاريخ العرب قبل الاسلام . ومؤلف التاريخ هو ابن الراهب القبطي ، كتبه في الاسكندرية في ١٣ بشنينه سنة ١٠٢٣ للشهداء المقابل

لثلاثة ايام خلت من شهر ذي القعدة سنة ٧٠٦ هجرية.

ولما عاد الى رومية نشر لائحة الكتبة السريان لمؤلفها عبد يشوع الصوباوي، اسقف نصيبين، وعلق عليها الحواشي الضافية المفيدة، وجعلها تقدمة للكردينال فرنشيسكو بربريني الذي كان آنئذٍ في باريس، في حماية الكردينال مازارِن، لان شعب رومية كان قد هاج عليه وطلب من البابا اسكندر السابع حطه عن مقامه. فعارضهم مازارِن وجعل الكردينال بربريني في حمايته وخلصه. اما اللائحة المذكورة فكان قد اخذها الحاقلاني من دير الصليب في القدس، لكنها لم تكن متقنة بل مشحونة اغلاطاً، وقد خلط الحاقلاني بين الصوباويّين. ولذا اعاد السماني طبع هذه اللائحة في مكتبته الشرقية، وصحّح ما كان سالفه قد شطّ فيه. اما المطبعة التي اهتمت بنشر هذه اللائحة فهي مطبعة يوسف البلوقيتي من عائلة بيت هلال.

ويُذكر للحاقلاني نسخه بيده كتاب رتب وضع اليد «السياميذ» وكتاب «الكهنوت» لمؤلفهما مار يوحنا مارون. واشترك مع العالم لاون الأَلاسيوس في تأليف كتابٍ جمعت فيه الادلة المثبتة اتفاق الطوائف المسيحية الشرقية في عقائد الايمان، وقد طبع هذا الكتاب في مدينة مايِنس.

ونشر كتاب الصلوات الفرضية للموارنة، بعد ان صدّق الترجمة نسيبه مرهج ابن نمروّن سنة ١٦٥٦.

وبعد سنة انتخب البطريرك جرجس البسبعلاني خلفاً للسعيد الذكر البطريرك يوحنا الصفراوي، فاسرع الى ارسال معتمد يحمل صورة اعترافه بالايمان، مع صكوك انتخابه، الى مقام الحبر الاعظم لينال التثبيت ودرع ملء الرئاسة، وكلّف بهذه المهمة راهباً كرمليّاً ذا فضيلة ممتازة. انما شدّة التعب ومشاقّ الاسفار أضنت قوى الرسول فما لبث ان فارق الحياة الفانية بعد وصوله الى رومية بمدة وجيزة. عندئذٍ كتب رئيس الكرملتان الى البطريرك يطلب منه ان يفوّض الى راهب آخر ان يقوم بالمهمة المذكورة. لكن المساعي التي بُذلت لم تأتِ بنتيجة، فظنّ البطريرك ان بعض ابناء طائفته كتبوا عرائض ضدّه الى رومية لان بعضهم كتب اليه من رومية ان الدرع لا يُعطى بدون نفقات. فاغتم

كثيراً لهذا التأخير ، وكاد يقنط لانه كان يقول «ما الداعي لهذا التسويف وقد نال اسلافي الدرع حالاً دون ابطاء ؟ ماذا صنعت للكرسي الرسولي حتى اعامل هذه المعاملة؟» وزاد في غمه ازدراء الروم والمراطقة به ، وكانوا قد ألفوا اغاني عامية يرددها الشعب للتهكم عليه . والامر المدهش هو ان البطريرك ، كان رجل الله يعيش عيشة نسكية لا يأكل اللحم ابداً بل يصوم صيامات كثيرة ، ويحب قطيعه محبة فائقة ويساعده ما استطاع ، وخصوصاً في تلك الايام التي كان فيها الحمادية يسومون الموارنة عسفاً وظلماً . فانه باع حتى اثوابه وما في كرسيه من فرش ، على حقارته ، ليساعد بنيه ، واضطر ان يهرب من كرسيه مرتين ، فنهبها الحمادية وتركوها بحالة يرثى لها .

ففي تلك الضيقة ، التفت البطريرك الى ابناء الطائفة الموجودين في رومية ، وخصوصاً الى الحاقلاني ، صاحب الكلمة المسموعة في البلاط الروماني ، وكتب اليه يشكو حاله ويطلب مساعدته واليك ترجمة الرسالة التي بعثها ننشرها ليطلع القرّاء على الحالة النفسية التي سببها تأخير وصول الدرع الرئاسي اليه . وتاريخ الرسالة ١٥ آذار ١٦٦٠ ، ومصدرها قنوبين :

الحقير جرجس بطرس بطريرك الموارنة الانطاكي

بركة سيدنا يسوع المسيح تحلّ على ولدنا العزيز ابرهيم الحاقلاني . لتحلّ بركة الرب عليك وعلى اولادك وعائلتك وقواك . امين

وصل لدينا ولدنا العزيز رئيس الكهنة يعقوب الحصروني ، وهو حامل الكتب والكؤوس والاثواب البيعية وسائر الامتعة التي ارسلها سيدنا الكلي القداسة البابا اسكندر السابع بفضل مساعيك . وقد وصلت كلها كما جاء في لائحة المجمع المقدس . ان رئيس الكهنة يعقوب قد اثنى الثناء الطيب على محبتك واجتهادك وتعلقك بالطائفة المحبوبة ، فسررنا ذلك جداً وجلّ ما نرغبه ان تواصل السير على هذه الخطة . فليباركك الرب . كذلك فرحنا كثيراً لشديد تعلقك باميرنا المحبوب جداً الرفيع المقام ابي نوفل باستحصالك له على رتبة فارس وعلى امتيازات اخرى من لدن الكرسي الرسولي . ونرغب ان تتم محبتك جدّ الاهتمام في قضاء مصالح طائفتنا حتى يبقى لك ذكر طيب وشكر جزيل . فضلاً عن ذلك نعلم محبتك بما يتعلق بانتخابنا كم ارسلنا اليك من الكتابات حتى تساعد من جهتك لننال لنا التثبيت من قداسة سيدنا الحبر الاعظم ! لكنه حتى اليوم لم يجدِ علينا شيء . ولا نعرف ما حصل من هذا القبيل ، نجهل الاسباب التي لاجلها يُماطَل في قضاء هذه المسألة التي ما زالت تتأجل من مدة طويلة . فليه لثقتنا بتمام اجتهادك نرغب اليك ان تمد يدك لمعاونة الاباء الكرملتان بما تستطيع بكل

اجتهاد لانجاز الشؤون المذكورة المتعلقة بنا كما كنا قد سبقنا وكتبنا لك . فان رجاءنا موضوع في الله تعالى وفي محبتك. ونكرر لك البركة.

ان براءة التثبيت كانت قد صدرت قبل ذلك من لدن الحبر الاعظم اسكندر السابع ، بتاريخ ٥ نيسان ١٦٥٩ ، ثم تلاها رسالة من البابا نفسه الى البطريرك المذكور صدرت بعد شهرين من تاريخ الاولى ، يُقرّ بموجبها البطريرك في سلطته ويطلب منه ان يبرز حسب العادة المألوفة صورة الاعتراف بالايمان ، وصورة قسم الامانة للحبر الاعظم ويوقعهما بخط يده امام مطراني اهدن وحوقا ، او امام احدهما لتُرسَلا الى رومية . وكانت الرسائل الاولى قد غُيّر فيها العبارات المتـادة وعوض التثبيت طلب البطريرك رضى الحبر الاعظم بالانتخاب فكان ذلك من اسباب تأخير ارسال الدرع الذي كان قد قرّر منحه البطريرك قبل ان كتب الكتابة الاخيرة للحاقلاني ، لان البابا اسكندر السابع اثبت انتخاب البطريرك في مجلس الكرادلة المنعقد في ٢٦ ايار سنة ١٦٥٩ . لكن البراءة لم تصل الّا في شهر آب سنة ١٦٦٠ .

فمن رسالة البطريرك التي ذكرناها يتضح جليًا ان تأخير التثبيت كان قد احزن البطريرك ، وان الحاقلاني لم يكن ليهمل مصالح طائفته . يدلّك على ذلك تكليف رؤسائها اياه ان يقضي امورًا شتى يجتهد بكل قواه لينال حلّها بالشكل المرضي ، بما يسر السيد البطريرك . ويثبت ما قدمنا ان الحاقلاني كان ذا نفوذ واعتبار لدى الباباوات والكرادلة والملوك ، كما قال عنه القس الياس عويضه الغزيري في زجليته عن تلاميذ رومية :

وشماس ابرهيم حاقلاني مشهور بعلم الكلداني
علمه مشهور بين الناس عند البابا والجلاس
عمل غراماطيق سرياني يورث حياة الابدية
دائم كان مرفوع الراس بيواب الكردينالية

وكان في تلك السنة قد هيأ كتابه المشهور « الانتصار لافتيشيوس » وضعه في اللاتينية ، وترجم منها المطران يوحنا الحصروني ، مطران طرابلس ، لكن هذه الترجمة فُقدت ، وقدمه للموافقة فكلف الاب فرنسوا ده سانت اوغسطين ان يفحصه فقرّظه قال : « ان هذا الكتاب جاء طبق المرام مسندًا الى حجج

قوية ، سلس العبارة. يبرهن مؤلفه اقواله بحذق ويثبتها اثباتاً ، يهاجم بشدة ، تجد فيه الدقة ومضاء العزيمة وصدق اللهجة. اما براعة المؤلف في اللغات الاجنبية فتكسب اقواله قوة غير اعتيادية. انشاؤه هجومي ، لكنه يمتاز بما فيه من الاتقان.»

وقال مراشيوس احد الفاحصين : «ان الكتاب حصن منيع قام في وجه خصوم الكنيسة الرومانية المقدسة ولهذا اعتقد انه يستحق ان يُكتب بماء التبر وان يلمع لماناً خالداً. فليمش المؤلف طويلاً بإذنه عزّ وجلّ لخير الكنيسة حتى يدافع عن الدين الكاثوليكي بمؤلفات كهذه ويفضح جنون الكافرين الاشرار المملوء ضرراً في العالمين وينظفهما منه تماماً.»

طبع الكتاب في السنة ١٦٦٠ فجاء مؤلفاً بديعاً دحض فيه الحاقلاني اقوال البروتستانت في اصل رئاسة البابا وسلطان الاساقفة ، وخصوصاً ترهات العالم البروتستاني سلدانوس الذي تعقبه الحاقلاني وبيّن فساد مزاعمه.

فبحق وصواب وصفه الاب يوسف العينطوريني اليسوعي ، تلميذ المدرسة المارونية ، في قصيدة هاك ترجمتها :

« عقلك الشامل جمع بمهدٍ جبال لبنان الذهبية القمم وغنى الاردن ونهر التيبر . بشدة « مراسك تؤدب بكلامك «الانكليزي» (سلدانوس) ، وبعد حصولك على السلام والامان « بقهرك العدو تلبث متحفزاً للقتال . لكنك حليم في ذكائك تكرّم اسم الاب الجليل (الحبر « الاعظم) برغائبك وقلمك وتملقك . من يمكنه ان ينكر انك قلت كلاماً خالداً جديراً بالارز الذي اعطي مجد لبنان واللاسيوم (بلاد الرومانيين) متحدّين»

ومع انكباب الحاقلاني على التعليم ، كانت مساعيه لا تزال متواصلة لخدمة طائفته. فانه اجتهد كل الاجتهاد لمساعدة الخازنيين في مراميهم السياسية ، ونال للشيخ ابي نوفل رتبة فارس روماني ، وحمل البابا على التوسط لدى الملك العريق في المسيحية ليسمي ابا نوفل قنصلاً فرنسياً في بيروت . فكتب اليه البطريرك جرجس البسبعلاني يثني عليه اجمل الثناء كما سبقنا وقلنا.

وفي تلك السنة باشر الحاقلاني ، الذي كان قد سماه البابا اسكندر السابع ترجماناً ورئيس كتبة اللغات الشرقية في رومية ، وضع الجزء الاول من فهرست المخطوطات الشرقية في المكتبة الفاتيكانية . لكنه لم يتمكن من انجازه ، فواصل عمله نسيبه يوحنا بن متي بن نمرون الباني. ثم جاء بعدهما السمعاني

الكبير فقام بالعمل ، وألف مكتبته الشرقية المشهورة التي لا تزال مرجع المدققين.

ومما لا بد من ذكره ان جود العائلة المديشية سهل لعلمائنا ان ينشروا مصنفاتهم القيمة ، وبالخصوص الاميران فرديناند ثم ليوبولد الذي رُقي فيما بعد الى مقام الكرادلة . وبناء على طلبهما ومدهما يد المساعدة ، ترجم الحاقلاني شرح مقالات ابولونيوس ، لابي الفتح ، وهي مقالات مشهورة في العالم كله ، ترجمها علامتنا الى اللاتينية فقال فيه مرهج ابن نمرون : « ماذا اقول في الرجل الذائع الصيت في العالم اجمع ، الذي اعزّ مقامه اوفر الرجال علماً في اوربة وامراء الكنيسة لنبوغه في المعارف ، واجزلوا عطاءه وتكريمه.» وترجم ايضاً مرآة العالم في الادبيات من اللغة الفارسية الى اللاتينية.

وله غير ذلك من المؤلفات والترجمات التي اعلت مقامه بين العلماء ، واكسبته نفوذاً عند ارباب السلاطين الروحية والمدنية.

وافته المنون في اليوم الخامس عشر من شهر تموز سنة ١٦٦٤ في رومية ، بعد ان كان الحبر الاعظم سمّاه حافظاً لخزانة مار بطرس ، فبرح هذه الفانية شبعاناً من الايام ، بعد حياة ملأتها خدماته العظيمة للعلم وللدين ولطائفته.

قال عنه العلّامة رينودوت في تأليفه «دوام الايمان»: « ان شهرة الحاقلاني العالية ومؤلفاته المشتهرة عند العلماء الذين لم يجهلوا اعتبار الاحبار الاعاظم له وعطفهم عليه ، قد اصبحت معروفة لدى كل احد . وقد كرّمه رجال العلم الاوفر شهرة في اوربة.»

وفي التذكار المئوي لانشاء المدرسة المارونية الذي احتفل به سنة ١٦٨٥ ، قد نُظم في مدحه الشعر الآتي تعريبه:

«ولد لخير الادب والحكمة فلمع ببراعته في اللغات وبعلمه المتنوع ولذا شمله الامراء والاحبار بعطفهم العظيم لانهم عالمون انهم لا يستطيعون ، بدون مساعدة الآداب ، ان يملكوا او يحسنوا تدبير الملك. طلبه اولاً الى فرنسة لويس الثالث عشر ثم لويس الرابع عشر . ساعد مساعدة نشيطة في طبع الكتاب المقدس ونشر مؤلفات كثيرة في الفلسفة والرياضيات ، وكتب كثيراً ضد الاراطقة . وقد ظن بصواب ان افضل ما يزين به عقله تخصصه لخدمة الدين».

والحق يقال ان هذا العلّامة لم يضع وقته ، ولم يدفن الوزنات التي اعطاه اياها سيده ، بل تاجر بها وربح عشر وزنات مثلها.

فانه خدم العلم بما جمعه من مخطوطات ، وما ترجمه منها ، وما ألّف من كتب . وخدم الدين بمصنفاته الآئلة لتأييد الحقائق التي تعلّمها الكنيسة ، ولبيان اتفاق فروعها المختلفة على تلك العقائد ، وخدم طائفته بما نال لها من عطف الاحبار الاعاظم والكرادلة وكرمهم ، وبما جعله لها من المنزلة بين الامم وباعلاء شأنها بما يشرّف البشرية ويرفع مقامها . فحق على الطائفة المارونية ان تخلّد ذكره بين الذين تفتخر بهم .

ونختم هذه النبذة بايراد بعض المخطوطات القيّمة التي جمعها الحاقلاني للمكتبة الفاتيكانية ، وهي الى الآن تعرف باسمه :

العهد العتيق ، سرياني . طبعه المطران سركيس الرزي .
الشرطونية المارونية ، جزءان كتبت سنة ١٥٠٧
الشرطونية والرتب اليعقوبية ليعقوب متربوليت ميافارقين ، نسخت سنة ١٥٧٢
النوافير المستعملة عند الموارنة ، نسخت سنة ١٥٣٥
التواريخ المختلفة لاسماعيل بن ايوب ، لابن الراهب ، لغريغوريوس ابن العبري
قوانين وعظات القديس انطونيوس ، وايضاح الليتورجية لمار يوحنا مارون ، وايضاح الايمان لاهالي جبل لبنان
زجليات ابن القلاعي وعددها ٢٣
دواوين زهير ، وابن الوردي ، وابي بكر ، وابي اسماعيل ، وعبد الرحمان السيوطي
غراماطيقات مختلفة عربية او سريانية .
كتب فقه اسلامية .
تاريخ مراكش .

الى غير ذلك من المخطوطات التي لها نفعها كلائحة كتبة السريان لعبد يشوع الصوباوي ؛ وكتب طبية عديدة تعرف من مطالعتها ما هي الدرجة التي بلغها الاطباء من العلم والحكمة في ما مضى من الازمنة .

هذا ما استطعنا جمعه من المعلومات عن علّامتنا الحاقلاني . وعسى ان يوفَّق الغير الى اكثر من ذلك .

تنبيه — قلنا في الجزء الاول من هذه النبذة ان المحالفة التي كان يُسعى في عقدها بين البابا والامير فخر الدين وغراندوق توسكانا كان من مقتضياتها ان يولّى احد افراد عائلة بربريني على فلسطين ، وغراندوق توسكانا على قبرس ، والصحيح ان المقصود كان تولية الامير تاديو بربريني على قبرس ، وحفظ الاراضي المقدسة لغراندوق توسكانا . فاقتضى التنبيه الى ذلك .

(انتهى)

في سبيل ثقافتنا العامة : ٢

النقد الادبي

فائدته — طريقته العملية

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

نشرنا في جريدة «البشير» ، لاربع سنوات خلت ، سلسلة ابحاث في ماهية النقد الادبي ، وتاريخه عند العرب ، وتطوّره حتى عصرنا . وقد سُئلنا مرارًا منذئذٍ عن طريقةٍ عملية للنقد الصحيح ، يطبقها طلّاب الصفوف العاليـة في درس الآثار الادبية ، فتمكنهم من فهم عناصر الجمال فيها ، ومن التعبير باسلوب مقبول عن ائتلاف هذه العناصر وتساوقها لاحداث التأثير الفنّي الظاهر في كل أثر من روائع الفكر البشري ؛ وآخر ما شعرنا بالحاجة الى هذه الطريقة في شهري حزيران وتشرين الاول الماضيين ، اثناء تصليح مسابقات المتقدمين لامتحان البكالوريا اللبنانية ، اذ رأينا اكثر الطلّاب يخبطون في نقدهم هائمين بين قواعد الصرف والنحو والبيان ، دون اهتمام بالفرق الجوهري بين نقد المعنى ونقد المبنى[1] . فرأينا ان نجمع في مقال مختصر ما نراه ضروريًا من قواعد النقد الادبي ، ونبسطه باسلوب سهل ظاهر التقسيم ، فيتمكن الطلّاب من حفظه ، وتطبيق اقسامه على كل قطعة يطلب منهم نقدها . ...

وغنيّ عن البيان ان النقد الادبي من اخصب الفنون الادبية فوائد للمرتاض ، ومن اوفر التمارين العقلية نتائج المتأدب . لانه يحصر نطاق الفكر في درس قطعة معلومة فيحدّ الذهن في البحث عن محاسنها ومساوئها ، فيتتبّع الفاظها وتعابيرها ، ويحلّل جملها وفقراتها ، فيشاهد الكاتب في معمله ينتقي من المعاني

---

١) راجع ما قلنا عن هذا النقص واسبابه في مشرق السنة الحالية ، ص : ٢١٢ و٢٨١

اوفقها ومن التعابير اليقها ، ويحضر الشاعر في مختبره يختار من الصور اوفرها سطوعاً ومن العواطف ارقها تأثيراً ، ومن القوافي ابعدها صدًى . ثم يسير متنقلاً من فكر الى آخر حتى الفكرة الشاملة فيعرضها على محك بصيرته وذوقه ويرتقي منها الى صاحبها ، اي المؤلف ، فيدرس عقليته ، مجتهداً في تصوّر زمانه ومكانه وتفهم عوامل بيئته ، وما كان لكل ذلك من التأثير الحسن او السيّء ، في القطعة المذكورة . ثم يدرس الصلة بين الفكرة الشاملة والافكار الثنوية من جهة ، وبين هذه الافكار واسلوب التعبير عنها من جهة اخرى . ويعود وقد مرّن ذهنه بدرس ذهن المؤلف ، وروّض مخيلته باتباع مخيلة المصور ، ورقّق شعوره بالاحساس بشعور الشاعر ، وربّى ذوقه بعرضه على ذوق الكاتب ، فيصبح ادق بصيرة ، من ذي قبل ، في درس الآثار الفنية ، واصوب حكماً على مولدات الفكر البشري ، واوفر احساساً بالجمال على مختلف مظاهره .

هذا ما يستفيده الناقد ، او ما ينبغي له ان يستفيده ، اذا اعمل بصيرته في القطعة المطلوب درسها ، وسار في عمله على اسلوب قويم يقوده الى لبّ النقد الادبي .

اما هذا الاسلوب فسنجتهد في تحديده ، وبسط اقسامه ، وماهية كل منها ، مرتبين كلامنا على اربعة اقسام : اولها التوطئة ، وآخرها الحكم العام :

التوطئة : ذكر المؤلف ، وتحديد مركز القطعة في تأليفه

لا يخفى انه كثيراً ما تكون القطعة المطلوب نقدها منتخبة من تأليف مشهور ، فقد تكون وصفاً لليل او الجواد او للقتال ، مأخوذاً من احدى المعلقات ، او رأياً لابن خلدون في تأثير الهواء في الاخلاق ، او درساً حكمياً للغزالي ، او ما شاكل . فينبغي للناقد ، والحالة هذه ، ان يجتهد في تبيان الصلة بين هذه القطعة المنفصلة ، وما فُصلت عنه من سائر قطع الكاتب او الشاعر في تأليفه ذاك ، مشيراً الى آرائه المبثة ونتائجه التي تجب معرفتها لفهم القطعة المذكورة . ومن ثمّ يتطرّق الى ذكر ما يعرفه عن المؤلف ، مما يفيد الموضوع الحالي ، وما وقف عليه من الظروف المكانية والزمانية التي دفعت الكاتب

الى تأليف كتابه عامة وهذه القطعة خاصة . اما اذا كانت القطعة منفردة ، مستقلة بنفسها ، كأن تكون مثلاً خطبة تامة لعلي بن ابي طالب ، او مقامة للهمذاني او الحريري ، او قصيدة برأسها للمتنبي او لابي تمام ، او رواية كاملة للاصبهاني ، او مقالة عصرية ، او ما شاكل ، فلا حاجة الى التوقف عند ذكر الصلة بينها وبين سائر آثار الكاتب ، بل يكتفى بذكر المؤلف ، والظروف التي قد يكون ذكرها ضرورياً جداً اذا كانت القطعة تاريخية او تمت الى حادث تاريخي ، كما نرى في رسائل علي الى معاوية ، وفي قصائد المتنبي وفي اكثرية مقالاتنا وقصائدنا العصرية . فاننا لا نفهم حق الفهم رسائل نهج البلاغة ، ولا مدائح المتنبي لسيف الدولة ، ولا مقالات ولي الدين يكن مثلاً ، ان لم نلم ، وان سطحياً ، بحروب علي ومعاوية ، وبمعارك سيف الدولة ، وبظلم عبد الحميد ومناهضته للاحرار .

وبيّنٌ ان الطالب بعيدٌ عن ان يدرك ، وحده ، هذه المعلومات ، فيجب على المعلم اذاً ، او على الفاحص ، ان يقرن القطعة المطلوب نقدها بما يلزم من الافادات عن المؤلف وذكر الحوادث الظرفية التي دفعته الى تأليفها . فيكون من واجبات الناقد ان يسبك ذلك بجملة مقبولة واسلوب مختصر ، متحاشياً التطويلات والشروح النافلة التي لا تتناسب وسائر اقسام النقد ، فيضيع وقته ووقت مطالعه ، ويخرج عن الموضوع المقصود .

القسم الاول : تحليل القطعة

نريد بالتحليل درس تكوين القطعة قسماً قسماً ، وتفكيكها جزءاً جزءاً ، مع اظهار اللحمة بين هذه الاجزاء ، وعرضها بطريقة مصغرة تغني المطالع عن قراءة النص المذكور . واذاً فعلى الناقد أن لا يخلط بين التحليل والحل المعبّر عنه في عرف البيانيين « بان يعمد الكاتب الى ما نظمه غيره فيرويه بالنثر » ، وان لا يخلط ايضاً بين التحليل والشرح ، وهو أن يعمد الى فكرة الكاتب فيوسعها او يعلق عليها . فكم من الطلاب ، اذا طلب منهم نقد قصيدة من مدائح المتنبي ، ينصرفون سريعاً الى حلها بيتاً بيتاً فيوردون بنثرهم المضطرب الركيك ، ما اودعه الشاعر نظمه الرشيق المتين . واذا فرض

عليهم نقد خطبة من نهج البلاغة ، يسرعون الى شرح بعض الفاظها فيذكرون ما يلفت نظرهم فيها من نكات اعرابية او نحوية ويكتفون بتعليق شيء من الشرح على بعض فقراتها ... ليس هذا من التحليل في شيء . اما التحليل الذي نقصد ، وهو العمل التمهيدي للنقد بحصر المعنى ، فيقوم بأمرين :

١ً – غاية المؤلف

لكل عاقل غاية في ما يتفوّه به من الاقوال ، او في ما يأتيه من الافعال ، فكيف بالمؤلف يذيب دماغه ويحيي لياليه في قرض مقطوعة ، او تحبير مقالة ، او تدبيج خطبة ! فاول ما يجب علينا اذًا ، هو التفتيش عن غاية المؤلف في قطعتـه . وقد يُقال لهذه الغاية الفكرة العامّة ، او الشاملة ، او المسيطرة ، او قصد المؤلف ... وكلها كلمات لا عبرة باختلافها الظاهر اذ ان مضمونها واحد يكون تارةً وصف حادثة ما ، او درس اخلاق ، او تصوير مظهر من مظاهر الحياة ، او ايراد حكمة ، او سرد قصّة واقعية او مخترعة ، او مدحًا او هجاء او غير ذلك من فنون الانشاء المتعدّدة التي يسير بينهـا المنشئون ، فيختارون ما يروقهم ، ولا اعتراض عليهم في شيء من ذلك . اذ لا يمكننا ان نلوم المؤلف لتفضيله موضوع فخر مثلًا على سرد حكاية ، او لميله الى درس بعض الاخلاق عن درس مظاهر الطبيعة . والخلاصة ان للمؤلف ملء الحرية بانتقاء اي موضوع شاء ، على ان يظلّ ذلك الموضوع ضمن الحدود الادبيـة التي يقرّها الذوق الكامل المهذّب ، وتتطلبها اللياقة الانسانية الجديرة بالاعتبار والاحترام .

٢ً – طريقة المؤلف للوصول الى غايته

ان وجود الغاية او القصد يفرض وجود طرق واساليب يسير عليها المؤلف للوصول الى تلك الغاية ، او لبلوغ ذاك القصد . وهنا ندخل القسم الثاني من تحليل القطعة ، الا وهو تفكيك اجزائها ، واحدًا بعد واحد ، للاطلاع على اللحمة بينها ، والوقوف على نوع ترتيبها بعضها الى بعض لنفهم الطريقة التي ادّت بصاحبنا الى غايته . وبكلمة اخرى علينـا ان نحلّل الافكار الثنوية في القطعة لنرى تساوقها كلها الى تحقيق الفكرة العامّة ، وهو مـا يسمّى بدرس

التقسيم ، او باعادة رسم القطعة المحللة . مثلا لو فرضنا قصيدة ينظمها المتنبي في سيف الدولة ، « لكل امرئ من دهره ما تعوّدا ! » مثلاً ، فتكون غايته فيها او فكرته العامة المدح . اما ما يورده من مفاخر سيف الدولة كتعوّده الغلبة ، وذكائه ، وترفعه عن الملوك ، وبطشه بالروم ، وادلاله على الخليفة ، وحكمته ، وكرم سجاياه وأريحيته الخ . . . فيكون من الافكار الثنوية التي يجب علينا تعدادها والاشارة اليها في القصيدة واحداً بعد واحد ، ثم ترتيبها على النسق الذي اوردها به الشاعر . علينا ان نقوم بذلك على طريقة وضعية بحتة ، اي خالية من كل عبارة قد يظهر منها الذم او المدح . لان واجب الناقد الاول ان يبسط غاية المؤلف الذي ينتقده ، ويحلل اقسام مؤلفه ، على اسلوب خارجي محض وافر البرودة ، كثير الدقة الوضعية ، يترفع عن العاطفة والميل . حتى اذا فرغ منه تناوله بالنقد ، وهو القسم الثاني من بحثنا .

القسم الثاني : النقد

اما النقد فيدور على شيئين ايضاً : نقد المعنى ، ونقد المبنى .

١ – نقد المعنى

تقدم أن نقد الفكرة العامة ، او غاية المؤلف ، لا يتيسر عادةً ؛ وعليه يجب الانصراف الى نقد التقسيم . ويكون بالنظر في تلك الاجزاء التي عرضناها سابقاً بطريقة وضعية ، فنأخذها الآن فكراً فكراً ، ونحكم على كل واحد منها : اولاً بحد نفسه ، ثم بالنظر الى مركزه من التأليف . ولا بد هنا من ايراد مثل يوضح هذه القواعد النظرية . فلنرجع الى قصيدة المتنبي ، ولنسأل نفسنا إزاء كل معنًى: هل هذا حسن ام لا ؟ وهل هو موافق ؟ مثلاً : هل وصف سيف الدولة بالبطش حسن في حد نفسه ؟ فان كان الجواب نعم ، انتقلنا الى السؤال الثاني وهو : هل وصف سيف الدولة بالبطش موافق لغاية الشاعر في هذه القصيدة ؟ فان كان نعم ، ثنينا بسؤال جديد فقلنا : وكيف ذلك ؟ ثم انتقلنا الى المعنى الثاني ، وهكذا الى ختام القصيدة . ولكن لا يتوهمنَّ الناقد ان من واجبه تعداد الاسئلة ، او سبكها كلها بقالب واحد ، او الوقوف بها عند كل معاني القطعة ! لا فان كثيراً من القطع لا

يحتمل مثل هذا التدقيق في البحث ، وان كثيراً من المعاني لا تستحق هذا الاهتمام . فعلى الناقد ان يعتمد على بصيرته وحسن ذوقه . اما اذا كان الجواب عن السؤال الاول او الثاني سلبيًا ، فيلزمنا القول: لماذا ؟ وما هو المعنى الاحسن ؟ او ما هو الاوفق ؟ وكيف كان يجب على الشاعر ان يسير حتى يصل الى غايته على اهون طريق ؟

ولا يخفى ان للثقافة الادبية الحقّة ، وللمادة النقدية الصحيحة ، وللذوق السليم المهذَّب الدور الاول في تحقيق هذا النقد ، وافراز المعاني الموافقة من غيرها ، وترتيبها كلها وفقاً لمنفعتها واهميتها بالنسبة الى الغاية المتوخاة ، ولاسيا ان كانت القطعة متعدّدة الافكار ، متباينة الاقسام ، متشعّبة المقاصد الثنوية ، كما نرى في اكثر قصائدنا القديمة .

٢ – نقد المبنى

ولا يتصوَّرنَّ الناقد انه اذا انتهى من هذا العمل ، فقد اتمَّ مهمّته ونال الفائدة الناتجة من النقد الادبي ! لقد قام بشيء مهم ، ولكنه لم يقم بكل شيء . نقد المعنى ، فبقي عليه نقد المبنى . وما المبنى الّا الطريقة الخاصة بكل مؤلِّف ، يلجأ اليها اذا ما اراد ان يوصل ما يجول في خاطره ، وما يختلج في فؤاده ، وما يتمثّل امام مخيّلته ، الى قرّائه . ما المبنى الّا الانشاء اللاصق بشخصية الكاتب الى درجة دفعت بوفون الى القول : « ان الانشاء هو الرجل نفسه ! » ما المبنى الّا الاسلوب المندمج في روح الاديب الى حدّ جعل فاگيه يقول: « انما يخلد الانسان باسلوبه ! » بهذا المعنى الواسع نفهم المبنى ، ونرى من الضروري ان يتبسط الطالب في نقده . واوّل ما يجب عليه ان يقف على الصفة العامّة لهذا المبنى ، سواء كان اسلوباً نثرياً بما يجره من توازن بين الفقرات وتوفّق في اختيار المفردات ، او شعرياً بما يقوم به من وزن ، ورويّ ، وصناعة . ثم عليه ان يلاحظ العلاقة بين الاسلوب الانشائي المستعمل ونوعيّة الغاية وما يقود اليها من الافكار الثنوية ، فيسأل : هل يوافق هذا الاسلوب الفسيح او الهادئ ، او المقتضب ، او العصبي او . . . للتعبير عن المعاني الغضبية ، او الحكمية ، او العاطفية الساكنة او . . . ثم ان كان كل ذلك موافقاً ،

هل احسن الكاتب باستعمال اسلوبه ؟ وكيف ذلك ؟ وان لم يحسن ، اي اسلوب كان عليه ان يستعمل ؟ ولماذا ؟

وبعد هذه الملاحظات العامة ، ينحدر الناقد الى جمل المؤلف ، فيتتبع ابتكاراته، وتعابيره الشخصية . وهنا المجال افسح من مجال المعنى ، اذ لا يخفى انه من الاسهل بما لا يقاس على الكاتب ، ان يكون مبتكراً في تعابيره ،من ان يكون مبتكراً في معانيه ، لان « الشعراء لم يغادروا متردماً» . بهذه التعابير الفردية تبدو مظاهر شخصية الكاتب الادبية ، فعلى الناقد ان يتتبعها حتى يؤلف منها صورة لتلك الشخصية ، وليجتهد في ان تكون تامة . ثم ينحدر ايضاً الى نقد الكلمات ، فيرى فيها كما رأى في التعابير ، حسنها الذاتي ، وموافقتها للمعاني . ويجب عليه في هذا القسم ان يقوم بما يلزم من الشروح اللغوية لاسيما في ما خص الكلمات الوضعية ، او الدقيقة ، او التي استعملها المؤلف عن قصد خاص ، فيفتحها الواحدة بعد الاخرى ، ويستخرج مضمونها فيعرضه على الفكرة التي شاء المؤلف الباسها تلك الكلمة . ومن الضروري هنا ان يستعمل القاموس ، لان في مؤالفة كتب اللغة من النفع ما لا يكاد يتصوره اكثر اساتذتنا ، وما لا تهتم به ، لسوء الحظ ، جمهرة طلابنا . فينتج من كل ذلك ان الاساتذة يتعودون شرح الكلمات بمترادفاتها — والمترادف الحقيقي في اللغة قليل وقليل جداً ، ان لم نقل غير موجود ! — فينسون الفروق الدقيقة بين كلمتين تشتركان بالمعنى العام ولكنهما تتباينان بما تجره كل منهما من الجو الخاص بالمعاني الثنوية ، فتتقلقل المعاني ، اذ ذاك في ادمغة التلاميذ ، فيلجأون الى التقريب ، في فهم النص الادبي ، وخصوصاً في شرحه .

وفي هذا القسم ايضاً ، مجالٌ للاشارة الى ما يستحق الذكر من الملاحظات النحوية ؛ ولا نريد بها اعراب الكلمات ، كما قد يتوهم البعض . فالاعراب ليس من النقد الادبي في شيء ، وان بدا لازماً احياناً لفهم تركيب دقيق او لتحديد موقع لفظة ما . وعلى الناقد ان يأخذ منه بمقدار ، وان ينتبه خصوصاً لما يهم الوقوف عنده من التراكيب الخاصة او التعابير التي قد لا توافق مشهور المألوف

عند النحاة ، كأن يسمع مثلاً ، في نقده قطعة من روايات الاغاني ، احد اشخاص ابي الفرج يقول مستفهماً : « وانا اصنع مـاذا ؟ » فيشير الى استعمال اداة الاستفهام بعد الفعل ، فيدلّ على معرفته القواعد من جهة ، وتيقّظه لكل بادرة تستحق الذكر من جهة اخرى.

وعلى الجملة نرى ان واجب الناقد ، في ما خصّ القواعد، لغويةً كانت او نحوية ، يقوم بان يستعملها ، لا لاضجار المطالع باعراب مفردات القطعة او بشرح الفاظها لفظة لفظة ، بل للاشارة الى ما لعلّه يفيد الغاية العامّـة من النقد بأن يوفر له ابداء بعض الملاحظات المهمة.

الختام : الحكم العامّ

جرينـا في نقـدنا ، حتى الآن ، على اسلوب تحليلي محض بادئين بالمركّب فالبسيط فالابسط ، منحدرين من الغاية العامّـة الى الافكار الثنوية ، ومن الاسلوب الاجمالي ، الى التعابير ، فالى الالفاظ . وهو افضل اسلوبٍ للوقوف على مركبات القطعة الفنّية واحداً واحداً ، ولمس اللحمة الظاهرة او الخفيّة التي تجمع شتاتها وتجعل منها وحدةً ادبية . وقـد آن لنا ان ننتقل الى استعمال الاسلوب الجمعي ، فنلقي الحكم على هذه الوحدة ، بعد أن القيناه على اجزائها. ويكون ذلك بتلخيص ما تقدّم من الملاحظات ، وباختصار حكم نهائي عام نحدّد به القطعة المفروضة ، ذاكرين ما تقتضيـه من التعليق من حيث الادب والفنّ او الاخلاق او التاريخ ، متجنبين ، في هذا ايضاً ، ما تجنبناه سابقاً من الاندفاع العاطفي مع المؤلّف او عليه ، ومن الملاحظات العامّة ، وطرق التعجّب المبتذلة التي تفيد كل شيء ولا تفيد شيئاً . ثم نرتقي مجالًا اعلى نلقي منه نظرة اعمّ واشمل تتناول شخصية المؤلف ، صاحب القطعة ، بجمعها اذا امكن ، فنصفها بحكم مختصر ايضاً ، ونبيّن موافقة القطعة المفروضة لما نعرفه من اسلوبه الانشائي وطريقته الفنية.

هذا ما رأينا بسطه من قواعد النقد الادبي ، فعسى ان يكون فيه مـا يدفع متأدّبينا الكرام الى التبصر في ما يقرأونه من النصوص الادبية ، ليتفهموا ما فيه من جمال ، ويقتربوا منه في آثارهم.

«انت الصفاة»

لمحة

في رئاسة القديس بطرس وخليفته الحبر الروماني

سُئلنا : ما الرأي ، من الوجهة الكتابية والتاريخية ، في القول الآتي :
« بطرس احد الزعماء وليس الرئيس . والكنيسة المقدسة احترمت بابا رومة كزعيم ذي شأن وليس كرئيس مُطاع ؟ »
فنُجيب :

١

الزعم الاول

« بطرس احد الزعماء وليس الرئيس »

المفهوم من هذا الزعم ان المسيح الربّ ، لاسمه السجود ، لم يُنشئ كنيسة منظورةً واحدة ، بل كنائس متعدّدة اي فئات شتى ، لا يحكم في امرها رئيس سامٍ فرد ، بل لكل منها « زعيم ! » مستقل تماماً عن غيره . وانما بطرس واحد منهم ليس الّا .

وهذا ما تنقضه تماماً اقوال الربّ عينه في الانجيل الطاهر . فاذ ابتدأ يكرز عزّ وجلّ ، كان يقول (متى ٤ : ١٧) : «توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات» بالمفرد . ولم نسمعه قطّ يثنّي او يجمع ملكوته الذي هو كنيسته وقال ايضاً : على الصفاة سأبني « كنيستي » (متى ١٦ : ١٨) لا كنيستَيّ ولا كنائسي . بل صرّح جليًا ان رعيّته ينبغي ليس ان تكون « واحدةً » فحسب ، بل « لراعٍ واحد » (يو ١٠ : ١٦).

وهذا ما فهمه الرسل كما يُستدلّ من مواضع عديدة[1] وعلّموه المؤمنين

---

١) راجع اعم ٩ : ٣١-٢٢ ؛ ١٥ : ١٦ ؛ ٢٠ : ٢٨ ؛ ١ كور ١٠ : ١٧ ؛ ١٢ : ١٢ الخ .

الاولين . جاء في تعليم الرسل[1] « اذكر يا ربّ كنيستك... واجمعها من اربع اقطار المسكونة مقدّسةً لملكوتك » وقال القديس يوستينوس[2]: « ان الذين يؤمنون بالمسيح هم نفس واحدة ومجمع واحد وكنيسة واحدة. » وما اصرح قول القديس كبريانوس[3] : « واحدٌ هو الله وواحدٌ هو المسيح وواحدةٌ هي الكنيسة وواحدٌ هو الكرسي المؤسس بصوت الربّ على الصخرة. »

ولا تتوهمنَّ ان رابطة الوحدة هذه انما هي روحية محضة . فهي منظورة ظاهرة كما انّ الخطيرة هي منظورة ظاهرة . فالوحدة التي توخّاها المسيح هي :

١ً : وحدة الاعتراف بايمان واحد . فقد قال (متى ٢٨ : ١٨) للرسل : « تلمذوا كلّ الامم .... وعلّموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به » وايضاً (مر ١٦ : ١٥—١٦) : « اذهبوا الى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلّها . فمن آمن واعتمد يخلص ومَن لم يؤمن يُدان . » وتلك كانت عقيدة الرسل[4] والآباء منذ اوائل النصرانية ، منهم يوستينوس المذكور آنفاً وهيجيزيبوس[5] وهوَ يسمّي هراطقةً « الذين انفردوا بزاعمهم الخصوصية... لأنهم اذ استنبطوا تعليماً مشوّهاً ... فسخوا وحدة الكنيسة » وقال القديس ايراناوس[6] في القرن الثاني للمسيح : « كما ان الشمس هي واحدةٌ في العالم اجمع لا تتغير ، كذلك يسطع التبشير بالحقيقة في كل الانحاء ويُنير كلَّ بني البشر ، الذين يرغبون ان يأتوا الى معرفة الحقيقة ... لان الكنيسة الجامعة لها في المعمور كله ايمانٌ واحدٌ لا يتغير. »

٢ً : وحدة الشركة . وقوامها بان يكون كل اعضاء الكنيسة ، افرادًا وفئاتٍ ، مرتبطين معاً ، على شكل جسم ادبيّ واحد ، وعائلةٍ واحدة ، وجامعة واحدة . فهم مشتركون بذبيحة واسرار وصلوات واحدة.

١) *Didachè* 10 : 5

٢) *Dial. c. Tryph.* 63

٣) *Ep. ad plebem,* 5

٤) راجع غلا ١ : ٨ — ١ كور ١ : ١٠ — افس ٤ : ٥ الخ.

٥) ذكره اسابيوس في تاريخه الكنسي ٤ : ٢٢.

٦) *Adv. Haer. I,* 10 : 23

هذا ما يُفهَم من الاستعارات التي عبَّر بها الرب والرسل عن كنه الكنيسة. فهي في عرفهم صرحٌ ذو اساس واحد، وملكوت تُسلّم مفاتيحه الى امين واحد[1] ورعيَّة لراعٍ واحد[2] وجسم مجهَّزٌ منظَّم واحد[3].

وهل من مجال للشك في ان الوحدة المنشودة هي التي قصدها الرب في صلاته بعد العشاء حيث هتف قائلًا (يو ١٧):

«ايها الآب القدوس احفظ باسمك الذين اعطيتهم لي ليكونوا واحدًا كما نحن واحد... ليكونوا بأجمعهم واحدًا كما انك انت ايها الآب فيَّ وانا فيك، ليكونوا هم ايضًا واحدًا فينا.... ليكونوا واحدًا كما نحن واحد، انا فيهم وانت فيَّ، ليكونوا مكملين في الوحدة.»

٣ً: وحدة السلطة والرئاسة. وقوامها بخضوع كل المنتمين الى كنيسة المسيح لسلطة منظورة واحدة. وانما متقلدو هذه السلطة هم الاساقفة المتحدون بالسدّة البطرسية، الخاضعون لها.

فلا لعمري ليس بطرس «احد الزعماء» بل هو الرئيس الاعلى ورئيس الرؤساء وراعي الرعاة. عليهم، هم ومرؤوسهم، ان يتقيدوا بتعليمه وباوامره في كل ما يتعلق بالعقيدة والاداب والتهذيبات. ومن منهم انفصل عنه فقد انفصل عن الكنيسة الحقيقية.

واليك النصّ الذي به حدّد المجمع المسكوني الفاتيكاني هذه العقيدة[4]. قال:

«ان قال احدٌ ان الطوباويّ بطرس الرسول لم يُقم من المسيح الرب رئيسًا على كل الرسل ورأسًا منظورًا لكل الكنيسة المجاهدة، او انه اخذ من ربنا يسوع المسيح اوّلية الشرف فقط، وليس اولية الولاية الحقيقية الصحيحة، فليكن محرومًا.»

وفي الانجيل الطاهر نصوص صريحة جليّة، تؤيد التحديد المذكور، ممّا لا يترك ادنى مجال للشكّ، اللهمّ فيمن سلمت اذهانهم من الاوهام. واليك شيء من هذه النصوص:

١ – كان المسيح قد سأل الرسل:

---

١) راجع مت ١٦: ١٨-١٩.

٢) راجع يو ١٠: ١٦ ٣) راجع روم ١٢: ٤-٥؛ اكور ١٠: ١٧ الخ.

٤) الجلسة ٤ والرأس الاول – راجع ايضًا الرأس الثالث.

«وانتم من تقولون اني هو . فاجاب سمعان بطرس قائلاً انت المسيح ابن الله الحي . فاجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان بن يونا . فانه ليس لحمٌ ولا دم كشف لك هذا لكن ابي الذي في السماوات . وانا اقول لك انت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني كنيستي وابواب الجحيم لن تقوى عليها . وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات وكل ما ربطته على الارض يكون مربوطاً في السماوات وكل ما حللته على الارض يكون محلولاً في السماوات . »
(مت ١٦: ١٥ - ١٩).

وانك ترى جلياً ان المخاطب في النص المذكور هو شخص مفرد اسمه سمعان واسم ابيه يونا . فله وحده إذن ، وله رأساً ، يعد الرب يسوع ما يعد . والموعود به انما هو لا محالة سلطة الولاية على كل الكنيسة التي عزم الرب على انشائها فقد قال:

١ - « انت الصفاة ، اي الصخرة ، وعلى هذه الصفاة سابني كنيستي وابواب الجحيم لن تقوى عليها» ولا شك ان لفظة «كنيستي» ، بدون ما اضافة شرط ولا قيد ، تدل على كل كنيسة المسيح . وقد لقب ، عز وجلّ ، سمعان «بالصفاة» دلالة على انه يكون الصخرة التي ستُبنى عليها الكنيسة . والمعنى ان سمعان يخوّل كنيسة المسيح كلما يخوّل البيتَ اساسُه الصخري ، بان يجعل كل اجزائه مترابطة متلاحمة ، فيمسي متيناً لا تزعزعه عوامل الخراب .

وكون معنى الاستعارة التي استعملها الرب هو على ما شرحنا ، فيستفاد بنوع ظاهر من قول سابق له ، عزّ وجلّ . فقد قال في ختام عظته على الجبل (مت ٧: ٢٤ — ٢٥):

« كل من يسمع كلامي هذا ويعمل به يُشبه رجلاً حكيماً بنى بيته على الصخر . فنزل المطر وجرت الانهار وهبت الرياح واندفعت على ذلك البيت فلم يسقط لان اساسه كان على الصخر . »

فلبطرس اذاً ان يجعل كنيسة المسيح واحدةً متينة لا تزعزعها قوات اعدائها ، التي تدلّ عليها «قوات الجحيم» سواء عُني بهذه الفقرة الموت او القوات الشيطانية ، وهو الرأي الاشيع . ففي الرأي الاول يُفهم من قول يسوع ان الكنيسة لن تموت ، لن تتلاشى ، لانها مؤسسة على سمعان . وان كان الثاني فالمؤدى انها ، بفضل الاساس عينه ، لن تتزعزع ، مهما صادمها الشيطان او اعوانه من ابالسة وبشر .

ب «ساعطيك مفاتيح ملكوت السماوات» او ليس انّ من سلّم اليه سيده مفاتيح بيتٍ او مدينة، كيما يفتح ويغلق على ما يرى ولمن يرى، فقد سلّطه عليهما سلطة تامة مطلقة. فيكون الرب، اذ وعد سمعان بمفاتيح ملكوت السماوات، اي كنيسته على الارض، قد وعده بسلطة تامة سامية على الكنيسة.

ج — وكي لا يغشى هذه الحقيقة ادنى ريب، شاء الرب، جلّت مراحمه، ان يُفسّر لنا بذاته معنى لفظة المفاتيح. فقد قال فيما يليها: «كلّ ما ربطته على الارض يكون مربوطاً في السماوات. وكل ما حللته على الارض يكون محلولاً في السماوات.» والمراد انه لما كان بطرس عتيداً ان يتقلد السلطة السامية التامة على الكنيسة، من اجل هذا اضحى كأن الله يتكلم بفمه. فهو تعالى يُقرّ في السماء كل ما يقرّره بطرس على الارض. فالله يربط ما ربط ويحلّ ما حلّ. وهلِ من حاجة الى البيان ان الرباط المقصود هنا، انما هو الرباط الادبي، الذي يُعبّر عنه بالالزام. افلا يكون اذ ذاك معنى كلام الرب ان قرارات بطرس تتقيد بها ضمائر ابناء الكنيسة كلهم. فان فرض عقيدة او عملاً فعليهم ان يؤمنوا ويخضعوا، وان نهى فعليهم ان يمتنعوا، والّا فقد اساؤوا الى الله الديّان بعينه.

٢ — وقد انجز المخلص وعده لبطرس بعد قيامته على ما ذكر الرسول يوحنا في انجيله حيث نقرأ (٢١: ١٥ — ١٧):

«قال يسوع لسمعان بطرس يا سمعان بن يونا أتحبني اكثر من هؤلاء. قال له نعم يارب انت تعلم اني احبك. قال له ارعَ خرافي. قال له ثانية يا سمعان بن يونا اتحبني. قال له نعم يا ربّ انت تعلم اني أحبك. قال له ارعَ خرافي. قال له ثالثةً أتحبني فقال له يا رب انت تعلم كل شيء وانت تعلم اني احبك. فقال له ارعَ غنمي.»

فظاهرٌ من هذا النصّ ان كلام الرب موجّه الى بطرس واليه وحده. فانه يدعوه باسمه واسم ابيه، بل يميّزه صريحاً عن زملائه قائلاً: اتحبني اكثر من هؤلاء. وظاهرٌ ان يسوع يخوله السلطة السامية على كل الكنيسة. وظاهرٌ ان الخراف والغنم تدلّ على الكنيسة بكل افرادها بدون استثناء، وقد سبق للرب ان دعاها حظيرته (يو ١٠: ١١ — ١٦) وسيّان ان يُعنى بالخراف المرؤوسين وبالغنم الاساقفة، على ما فهم اكثر المفسرين، او ان يُقصد باللفظتين كل

جمهور المؤمنين . فهل يمكن ، حتى في المعنى الثاني ، ان نستثني الاساقفة من رعاية بطرس ، ما لم ننكر انهم من حظيرة المسيح ، معاذ الله ! وهل من حاجة الى الاسهاب في تفسير لفظة «إرعَ» ؟ وحيث يكون مفعولها خرافاً عاقلة ناطقة ، كما هو الواقع هنا ، افلا يكون مدلولها سلطة التدبير والحكم ؛ أم ليس هذا ما قصده بعض الملوك من الاقدمين اذ لقبوا انفسهم رعاةً ؟

٣ – ومما يؤيد الحقيقة التي نحن بصددها ظروف جزئية ، يعثر عليها مَن يتصفح اسفار العهد الجديد ، وقد يخالها لاول وهلة طفيفة لا طائل تحتها ، الّا انه لا يلبث ان يُنعم النظر فيها ، إذ يراها تتكرّر مراراً عديدة . فيحاول تعليلها فلا يجدُ لوقوعها تفسيراً سوى السلطة السامية المطلقة التامة المخوّلة من الرب لبطرس . من ذلك :

ا – انَّ اسم « الصفاة » هوَ من وضع الرب عينه ، وذلك قبل ان يعد رسوله بالرئاسة السامية . فقد ذكر القديس يوحنا (يو ١ : ٤٠ – ٤٢) انه لما جاء اندراوس باخيه سمعان الى يسوع «نظر اليه يسوع وقال : أنت سمعان بن يونا أنت تُدعى كيفا الذي تفسيره الصفاة . » وقال انجيليٌّ آخر (مَر ٣ : ١٦) : «وجعل لسمعان اسم بطرس» ومعلوم ان الاسماء التي من وضع الله لا بد ان تأتي مطابقة لمن تُطلق عليهم . واماً ما اراد المخلص ان يعبّر عنه بتسميته سمعان بطرس ، اي الصفاة والصخرة ، فظاهرٌ فيما ورد في الفصل الـ ١٦ من انجيل متى على ما مرَّ بك .

ب – ومثل هذا المنزلة الرفيعة التي لبطرس دون سواه في الاسفار المقدسة . فانّا نرى يسوع يعلّم من سفينته) واليه وحده ، بعد الصيد العجيب ، يوجّه القول (لو ٥ : ١٠) : «لا تخف فانك من الآن تكون صائداً للناس» . وهو اول من غسل يسوع رجليه (يو ١٣ : ٦) واول من يجب من الحواريّين ان يُبلّغ خبر القيامة السيّدية (مر ١٦ : ٧) بل اول من منهم يظهر له الرب بعد خروجه من القبر حيا (لو ٢٤ : ٣٤ – ١ كور ١٥ : ٥) .

ج – ومن ذلك ايضاً المحلّ الاوّل الذي خُصّ به بطرس في الكتب المذكورة : كان اندراوس قد تبع المسيح قبل اخيه . ومع هذا نرى ان

المكان الاول في كل قوائم الرسل محفوظ لبطرس[١] بل قد لاحظوا ان متى[٢] يقول صريحاً في قائمته : «الاول سمعان المدعو بطرس» ويكتفي بان يسرد اسماء الباقين من الحواريين بدون ما يرتّبهم بان يقول مثلاً : «والثاني اندراوس والثالث يوحنا . . .»

د — وللسبب عينه وكّل الربّ الى بطرس ان يثبّت باقي الرسل . فقد ذكر القديس لوقا (٢٢: ٣١-٣٢) ما نصّه : «قال الربّ : سمعان سمعان هوذا الشيطان سأل ان يغربلكم مثل الحنطة . لكني صلّيتُ لاجلك لئلّا ينقص ايمانك وانت متى رجعت فثبّت اخوتك» فكيف يُثبّت الآخرين من ليس له عليهم سلطة ؟

هـ — وهي سلطة بطرس السامية التي مكّنته من الاعمال التي اتاها بعد الصعود . فهو الذي يتصدّر انتخاب متّيا وهو اوّل من يبشّر بالانجيل يوم العنصرة واول من يؤيّده بعجزة[٣] . الى غير ذلك ممّا تعلّله سلطة بطرس تعليلاً يرتاح اليه العقل[٤] ومما اذا نظرنا اليه ، ليس بكل مفرداته على حدة ، ولكن بها مجموعة ، يدلّ ولا شكّ انّ لبطرس على زملائه مزيّة لا معنى لها ، ما لم يكن معترَفاً له بسلطة حقيقية سامية عليهم جميعاً .

وهذا ما فهمه الآباء ، منذ اوائل الكنيسة ، على ما يتضح من كتابات لهم عديدة[٥] ، يطول بنا سردها في هذه العجالة . بل يكفينا ان نذكر في جزءها الثاني ما قالوا وأتوا دلالةً على اعتقادهم بسلطة خلفاء بطرس .

٢

الزعم الثاني

«والكنيسة المقدسة احترمت بابا رومة كزعيم ذي شأنه وليس كرئيس مطاع.»

هذا ما يكذّبه التاريخ تماماً . واليك الادلّة :

١) راجع مت ١٠: ٢-٣ ومر ٣: ١٦-١٩ ولو ٦: ١٤-١٦ واع ١: ١٣ .
٢) في المحل المذكور . ٣) راجع اعم ١: ١٥ ؛ ٢: ١٤ . . . ؛ ٣: ٦ .
٤) راجع اعم ٢: ٧-٨ ؛ ١٥: ٦ . . . ؛ ٩: ٣١-٣٢ ؛ غلا ١: ١٨ .
٥) راجع Tertullianus, *de Præscript.* 22 ;— Origenes, *In Ep. ad Rom. c. VI, l. V, circa finem* ; — Cyprianus, *de Unitate Eccl.*, 4, *etc....*

١ : في اواخر القرن الاول للمسيح ، اذ كان بعدُ يوحنا الرسول في قيد الحياة ، كتبَ اسقف رومة ، القديس اكليمنضوس ، الى كنيسة كورنتس التي كان قد اسسها بولس الرسول عينه ، رسالةً ضافيةً ، لا معنى لها لولا اعتقاده بما له على الكنيسة المذكورة من السلطة الحقيقية الخليقة ان تطاع . واليك بعض ما جاء في الأثر المذكور :

«عارٌ وعارٌ للغاية ان يُسمَع ، وغير خليق بالطريقة المسيحية ما قد تحققناه . الا وهو ان كنيسة الكورنتيين المتينة والعريقة في القدم تثور على كهنتها بسبب انسان واحد او اثنين . . . فيا ايها الذين انتم اس الفتنة كونوا بالطاعة خاضعين للكهنة وتقبلوا التأديب للتوبة . . . وان لم يخضعوا لما يقوله المسيح بلساننا فليعلموا انهم يعرّضون بانفسهم الى اساءة وخطر ليسا بطفيفين . واما نحن فنكون قد برّرنا ذاتنا من هذه الخطيئة . . . وقد ارسلنا رجالاً امناء يكونون شاهدين بينكم وبيننا . »[١]

فهل تختلف لهجة اكليمنضوس عن لهجة باباواتنا ، ام سلطته عن سلطتهم ؟

وما احسن ما وصف به القديس ايراناوس[٢] هذه الرسالة حيث قال : « انها قوية للغاية » (ἱκανωτάτη) . ومع ذلك فقد تقبلها الكورنتيون بكل اكرام بل جرت العادة طويلةً من بعد ان تُتلى في مجتمعاتِ المؤمنين ليس بكورنتس فحسب بل في غيرها من المدن .

واكليمنضوس هذا تلميذ الرسل ومثله القديس بوليكربوس اسقف ازمير الذي نراه يقصد رومة ، بالرغم من كبر سنه ومشقات السفر البعيد ، كيما يسأل البابا انيكيتوس حلّاً للمسألة الفصحية .

٢ : ومن تلاميذ بوليكربوس في القرن الثاني القديس ايراناوس الذي سُقف على مدينة ليون . فتكون شهادته ناطقة بايمان وتقاليد الكنائس الاولى في فرنسة وايضاً في الشرق الذي نشأ فيه . وقد عُني هوَ ايضاً لدى الحبر الروماني بالمسألة الفصحية فكتب الى البابا فيكتور رسالة[٣] يرجو منه بها ان لا يحرم الكنائس الاسيوية العديدة ، لداعي تمسكها وتنذرها بالتاريخ الفصحي ، الذي كان قد عيّنهُ الرسل انفسهم ، على سبيل تهذيب كنسي محض . وما كان

١) Ep. I Clem. ad. Cor. 47 : 6 ; 57 : 1 ; 59 : 1 ; 63 : 3.

٢) Adv. Haer. III. 3 : 3.

٣) راجع التاريخ الكنسي لاوسابيوس ٥ : ٢٤